الرجل الذي أكله الليل

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الرجل الذي أكله الليل

اسم الكاتب: آية الرجبي

تدقيق لغوي: فريق الدار

تصميم الغلاف: سلمى جمال

الإخراج الفني: محمود شوقي

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٤٤٨٢/٢٠٢٢٥

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٧٦١-٦٦-٥

+٢٠١١٠١٢٩٩٩٢١

+٢٠١٠٦٠٦٠٣٧٧٧

+٢٠١٥٥٠٠٩٧٨٣٢

جميع الحقوق محفوظة لدار أكوان للنشر والترجمة والتوزيع

وأي نقل أو اقتباس أو تغيير يعرض فاعله للمساءلة القانونية أمام المحاكم المختصة.

Visual Watermark

الرجل الذي أكله الليل

آية الرحبي

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

إهداء

لأولئك، الذين يصارعون عقولهم كل يوم، ويجلمون بصباح، حيث تشرق الشمس عند نوافذهم.

آية

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

تنويه

الأسماء، العائلات، الأحداث، الشخصيات، المؤسسات، في هذا العمل خيالية تمامًا، وأي تشابه بينها وبين الواقع غير مقصود.

- **ملحوظة:**

الرواية تتبع أدب الفانتازيا التاريخية، وفانتازيا التاريخ البديل.

لتجربة قراءة أكثر متعة، أُرفقت الرواية بحاشية بالمعلومات التاريخية للأماكن الحقيقية المذكورة في العمل، مع حواشي تاريخية وتوضيحية عامة.

الأكواد المرفقة في بعض الفصول تعرض صورًا توضيحية للأماكن الحقيقية.

روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

تحذير هام

هذا العمل يحتوي على أفكار انتحارية، إيذاء ذات، ومشاهد دموية، إن كنت أقل من سن السادسة عشرة، أو تعاني من فترة نفسية عصيبة أو من رهاب الدم يُرجى عدم قراءة هذا العمل، الاستمرار في القراءة، رغم هذا التحذير، سيكون على مسؤوليتك الخاصة.

***

«الليل أكثر حياة وأغنى بالألوان من النهار.» - فنسنت فان جوخ.

«إنه منتصف الليل؛ مرة أخرى أكلم الثلاجة

هي لا ترد أبدًا، تنصتُ فحسب

هذا البيت ليس مسكونًا بغيري

أنا، الشبح الآدمي المتجول بين الغرف» - نيكيتا جيل.(1)

حصريا على روايتي وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

كتيب التعليمات

لكل كتاب قواعده، ومخاطره؛ لذلك صُنعت كتيبات التعليمات الخاصة بموظفي مديرية مفتشي الليل؛ لتجنيبهم مخاطر المهنة وتعليمهم قواعدها، هنا كُتيب تعليماتك الخاص.

• **أولًا:**

ارتدي قفازاتك واكتب اسمك في الخانة الفارغة في الأسفل؛ لإثبات حقوق الملكية، ضياع كُتيب تعليماتك قد يكلفك حياتك في رحلتك الليلية المحفوفة بالخطر، وسيعاقبك المجلس على الضياع أو الإتلاف بعقوبة قد تصل للسجن ثلاثة أعوام، أو غرامة ألف جنيه ذهب.

الآن احرص أن تكون أوراق كتيبك معزولة بطبقات من البلاستيك، ثم أكمل القراءة.

فضلًا، اكتب اسمك وكودك الرمزي هنا:

(----------)

• **ثانيًا:**

إرشادات عامة

مكان التكليف: مديرية مفتشي الليل في الدقي _ المملكة المصرية.

الزمان: ٢٣ يناير ١٩٥٤ م.

وصولك إلى هذه المعلومات يعني أنك أصبحت مفتش ليل، تأكد أن أوراق الدليل مختومة؛ لصحة المعلومات، إن لم تكن مختومة سارع في ختمها في مركز تدريبك وإلا قد تتعرض للمساءلة القانونية.

• **ثالثًا:**

معلومات تاريخية هامة، برجاء حفظها؛ لامتحان الهيئة الإدارية.

صدر القرار الملكي الرسمي رقم ٣٢ لسنة ١٨٧٣م، الصادر من جلالة الخديوي ومجلس عمومه الأعلى، بمنع ملامسة الورق دون عازل من البلاستيك، ووُضع القرار ضمن القوانين المغلظة، وعقوبة من يُمسك بالورق دون عازل ثابتة، دون إمكانية النقض أو الاستئناف، وهي الإعدام.

حُكم على مائة عائلة بالاستمرار في الإنجاب مقابل مكافئة مالية حتى الجيل الخامس، الحد الأدنى طفلين والزيادة لن تضر ما دامت لم تتخطى الخمسة، إن كنت مصابًا بالوباء ستُعالجك المملكة المصرية على نفقتها، أما إن حاولت التهرب من أداء واجباتك تجاه الأمة، فسيعدمك مجلس العموم بتهمة الخيانة وعدم إطاعة كلمة الملك، فمصر تجابه خطر الانقراض منذ دخلها الوباء، الذي تتسبب أعراضه في عُقم غير معلوم السبب، مما تسبب في زيادة معدل الوفيات لدينا ونقص عدد المواليد بشكل كبير، خلال القرن الماضي انخفض عدد السكان من ثلاثين مليون نسمة إلى ما يقارب عشرين مليون نسمة.

• **تنقسم أعراض الوباء، بشكل أساسي إلى:**

العقم، وهو العرض الوحيد، الذي لا ما زلنا لا نفهمه بشكل واضح، لا طريقة انتقاله، أو كيفية السيطرة عليه.

النزيف، الرعشة، ثم التحول الكامل لهيئة وحشية، وهو ما يحدث من خلال لمس الأوراق المصابة، ورغم ما توصلنا إليه من معلومات ووسائل وقاية، إلا أن أسئلة كثيرة لا زالت باقية دون إجابة أو تفسير.

بدأ الوباء بشكل مفاجئ وشرس عام ١٨٦٠م، في عهد الوالي محمد سعيد باشا، مئات الآلاف ماتوا خلال أول ثلاثة أشهر، لم يكن الوالي مهتمًا جدًا في ذلك الوقت بأمر الوباء بشكل شخصي، ووكل وزير الصحة بالتعامل مع الأمر، ولم يكن ليلتفت الوالي لأمر الوباء ويترك اهتمامه بقناة السويس، التي لم

Visual Watermark

تكتمل لعدة عقود، إلا عندما وصل الوباء إلى عقر قصره، وقتل خدمه، وأحد حراس غرفة نومه، عندها جن جنونه وأمر بتشكيل لجنة عاجلة لدراسة وكشف سر وسبب الوباء، لكن المأساة الكبيرة، التي ارتكبها الباشا، وكان قد أغلق جميع الكليات، التي افتتحها والده الراحل الخديوي(2) محمد علي باشا، بدأ يجنيها الآن.

لم يجد محمد سعيد أطباءً أو عددًا كافيًا من المثقفين؛ ليخبره ما نوع المأساة، التي تحدث في كل مكان حوله وتحاصره كالخونة، وبدلًا من ذلك وجد عددًا مضاعفًا من الدجالين والشيوخ، الذين أقسموا أنهم قادرون على رفع الوباء عن الأمة، لكن الشيء الوحيد، الذي رفعوه كانت ثرواتهم ورقابهم عن أكتافهم.

عندما مضى نصف عام كان عدد الموتى قد تضاعف لاثني مليون نسمة، وتعطل العمل في حفر قناة السويس؛ لأن دو ليسبس(3) ذاته كان قد طاله الوباء وهرسه أسفل عجلاته قبل أن يتمكن من الهرب عائدًا إلى دولته الاستعمارية، وأدى خبر وفاته إلى تحويل مصر لدولة منفرة للاستثمار والسياحة، ومع فقد الأيدي العاملة والتجارة مع الدول الخارجية، تكبدت خزينة الدولة الكثير من الخسائر المادية.

توفي الوالي عام ١٨٦٣م بمرض السل، بعيدًا تمامًا عن الوباء، الذي خشاه، وترك أحمال إيقاف تيار الموت الجارف على كتفي الوالي الجديد، الخديوي إسماعيل، الذي يجابه نكبة اقتصادية عميقة، وهو ما سنخرج جزئيًا منه بعد ما يقارب الخمسة عقود، وقناة مائية غير مكتملة، وعدد موتى أكبر من عدد الأحياء.

حاول الخديوي طلب قروض من بريطانيا، فرنسا وحتى أسبانيا لإنقاذ دولته الميتة، لكن دولته كانت ميتة فعلًا، ولم تكن الدول الأوروبية مستعدة للإنفاق على أشخاص يموتون، خاصةً بعد أن أصبحت مصر بالنسبة لهم بمثابة مكان موبوء، وفقدت بريقها في أعينهم، ثم تدهورت الأمور أكثر عندما أقاموا حجرًا يمنع المصريين من القدوم إلى بلادهم خوفًا من انتشار العدوى، ورفضوا استقبال أبناء شعبهم الفارين من الموت تحت طائلة الوباء في مصر، وتركوهم للموت في البحر أو أسفل طلقات الجنود على الحدود، ولم يتمكن الوالي الجديد من تقديم أي شيء مفيد سوى أنه أعاد فتح الكليات والمدارس؛ لإخراج اشخاص يمكنهم إخباره بما يحدث.

بقي الوضع تعيسًا وأسودًا حتى قرر بعض من الشباب المصريين التدخل، ورفضوا أن تحل دول غريبة مآسي ومشاكل مصر الخاصة، وهكذا اجتمع عشرين شابًا مصريًا، ممن نجوا من الجهل، الذي نتج عن سنوات طويلة من إغلاق الكليات والمدارس، بعضهم كان قد درس في أوروبا وعاد حديثًا لإفادة بلاده، وبعضهم كان قد نشأ في عائلات متعلمة وتعلم منزليًا، وفي عام ١٨٦٥م نشأ رسميًا مجلس العموم، بصورته الأولى قبل أن ينقسم إلى المجلس الأعلى والمجلس الأدنى عام ١٨٩٠م، أسس المجلس في البداية؛ ليكون بمثابة مجلس استشاري مستقل للملك من أجل حل مسألة الوباء، ثم أصبح أعضاؤه يشكلون المجلس الوزاري، وعُرفوا عندها بمجلس العموم الأدنى، وهو المجلس المسؤول عن تيسير أمور الشعب العادية، أما المسؤولين عن التدابير الوقائية، واللقاحات، ومفتشي الليل، وموظفي حرس الليل، وحماية الحدود، وتحسين الاقتصاد، وحل الأزمات المحلية الكبرى هو مجلس العموم الأعلى.

تمكن المجلس من إقناع الخديوي بتولي قضية الوباء، مقابل شروط محددة، وافق عليها الخديوي إسماعيل على الفور، رغم أنه كرهها جميعًا، لكنه أدرك أن العرش والتاج لا قيمة لهما دون شعب، رغم ذلك لم يبقى الخديوي كثيرًا؛ ليرى نتائج ما وقعت عليه يده، فقد أزيل من العرش في يونيو من عام ١٨٧٩م.

طُرح أول دواء رسمي في السوق لعلاج الوباء، في عهد الخديوي توفيق، عام ١٨٨٢م، بعد ثلاث سنوات من التجارب والأبحاث، لكن الدواء بشكله الأول لم يتمكن من حل المشكلة من أساساتها، لكنه استطاع الحد من بعض الأعراض المصاحبة للوباء، وهي العقم، وبعض الهلاوس النفسية، مع

Visual Watermark

استقرار طويل نسبيًا، وأتاح لمجلس العموم الوقت لفهم محفزات المرض وآلية انتقاله، وهو ما سيحدث بشكل أكثر وضوحًا عام ١٩٢٧ بعد الاكتشافات المميزة، التي سيتوصل لها الأشقاء الثلاثة: عادل، ناهد ويوسف الدالي، لكن قبل ذلك مر المجتمع العلمي في مصر بالكثير من التغييرات والتساؤلات للوصول إلى الحقيقة خلف الوباء المجهول، أولها: إنشاء الكلية الأميرية للعلوم المصرية القديمة؛ لتكون كلية مستقلة تابعة لمجلس العموم الأعلى، واختصت تلك الكلية بتدريس المعرفة المصرية القديمة، من اللغة والثقافة، والعلوم القديمة، كالكيمياء، الفلك والجبر، المبنية على أساس النظريات المصرية القديمة، بالإضافة إلى أقسام خاصة بتعلم تصنيع الورق الخاص بقصر الملك برعاية مطبعة بولاق الأميرية، تحوي الكلية أربعة أقسام رئيسية: المعارف الفلكية، المعارف الكيميائية، معارف الأهرامات وصناعة الورق السليم، وتخرج منها العديد من الشخصيات المهمة.

ظهرت معلوماتنا الأولى عن المرض عام ١٨٧٠م، عندما اكتشف العالم عبدالكريم عبدالهادي، أن الوباء ينتقل عبر الورق، وأثبت نظريته أمام لجنة من أعضاء مجلس العموم، وتبع اكتشافه وقف التعامل بالورق، وإصدار حظر بيع وتداول الورق، الذي تم تعديله في يوليو ١٨٧٣م؛ ليصبح حظر بيع وتداول الورق دون عازل من البلاستيك.

صدر الحظر التالي، عام ١٨٨٤م، عندما اكتشفت مجموعة من الأطباء أن الليل يؤثر في تزايد حدة المرض، وسرعة تدهوره، فتزداد سرعة وحدة تحول المرضى من تلامس الورق.

بقيت النظرية مبهمة حتى قام عادل الدالي، الطبيب في القصر العيني، والابن الأكبر لعائلة الدالي الشهيرة، عام ١٩٠٨ من الربط بين حلول الليل وحدوث تغيرات كيميائية في الدماغ، وقدم اقتراحه الشهير أمام مجلس العموم الأعلى، بإدخال الكهرباء إلى المنازل ولو على الأقل لمبة واحدة لكل منزل، في محاولة للتقليل من أثر التغييرات الكيميائية المصاحبة لقدوم الليل، بالطبع لاقى اقتراحه اعتراضًا من العديد من الأثرياء، الذين اعتبروا أن الكهرباء هي حق محتكر للطبقة العليا، من أولئك، الذين يعيشون في منازل حقيقية، لا منازل من الطوب والبوص، لكن عادل وبمساندة من أخويه ناهد ويوسف، استمر في القتال ضد تلك الأصوات الصاخبة، وتمكن من إقناعهم وإقناع مجلس العموم أن سلامة عامة الشعب تصب في مصلحة سلامتهم هم أيضًا، فلا أحد يعرف إلى أي مدى قد يتطور الوباء، وهكذا في يونيو من عام ١٩٠٩م، أُقر قانون عادل الدالي، بإدخال الكهرباء لبيوت المصريين، وما تبعه ذلك من إنشاء محطتين لإنتاج الطاقة أثرتا بشكل ملحوظ في تحسن الاقتصاد وانتعاشه مع بدء مصر مشروعًا لتصدير الكهرباء للدول الأخرى، وهو ما استقبلته الدول الأخرى بحفاوة، ثم افتتح ناجي توفيق باشا مصنعًا لصناعة الألواح الشمسية لإنتاج الطاقة، وقد كان مجالًا صناعيًا حديث النشأة في العالم، وحقق هذا بالتالي الكثير من الارباح المادية، وعادت خزينة مصر للانتعاش تدريجيًا، وهكذا اعتبر جميع المصريين، عائلة الدالي وخاصة الأخوة الثلاثة المشهورين، أبطالًا وبمثابة أبناء لكل أفراد الشعب وعائلاته، ولقوا ترحيبًا دائمًا وحفاوة في كل مكان ذهبوا إليه، وظلوا في مرتبة خاصة في قلوب الجميع حتى وفاتهم المأسوية في حادث سيارة مدمر، في طريق عودتهم من مهمة رسمية للقضاء على وحش ضخم في بورسعيد، عام ١٩٤٠م، بعد باع طويل من التضحيات لأجل الوطن ولأجل كل المصريين؛ ليعيشوا بصحة جيدة وسلام بعيدًا عن الوباء، وتقديرًا لإسهاماتهم الخالدة، أعطى الملك لكل من عادل ويوسف الباشوية، وأصبحت ناهد هانمًا، وكذا والدتهم؛ باعتبارها مثالًا للأم المصرية الأصيلة، التي لا تبخل على أرض الوطن بأبنائها، كما قدم الملك للأخوة الثلاثة نيشان إسماعيل(4)، ووضعت النياشين على نعوشهم، قبل تسليمها لوالدتهم السيدة مريم هانم جمال الدالي، وقد حضر جنازتهم أكثر من ثلاثة ملايين مصري حضروا من جميع بقاع المعمورة، ومن لم يستطع السفر لحضوره استمع إلى النعي الحزين للأبطال الثلاثة، الذي عُمم في جميع الإذاعات المصرية، وأطلقت الفرقة العسكرية أكثر من مائة طلقة، لكن كل ذلك كان في الماضي، ولقد مضى أكثر من عقد على وفاة الأخوة الثلاثة، ومجد عائلة الدالي لم يعد لامعًا كما كان، والآن يقع حمل إكمال رحلتهم على الحفيد الذكر الوحيد، قاسم يوسف الدالي.

***

Visual Watermark

في نهاية الكتيب ملحق بالأحداث المهمة مرتبة تاريخيًا، مع مرفق خاص بأشكال تقريبية لبعض أنواع الوحوش المكتشفة، يُرجى العلم أن أحجام الوحوش في المرفق مختلفة عن أحجامها الحقيقية في الواقع.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
Visual Watermark

الفصل الأول: أكثر مهابة من الوحوش

الوحوش الأكثر رعبًا هي تلك، التي تتربص داخل أرواحنا.

ـ إدغار آلان بو.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

وحش يدعى التكليف

لم تستطع مراوح المكتب الثلاثة أن تغير من هواء الغرفة ولو قليلًا، ورغم أننا في أعماق ديسمبر إلا أن الغرفة الصغيرة بقيت مكتظة وخانقة كما لو كنا في أعماق أغسطس، أخطأت في اختيار المعطف لليوم.

العقارب في الساعة، فوق رأسي، تدور كما تفعل مروحة المكتب الصغيرة، لكن الطابور الطويل لطلبة التكليف لا يتحرك، إني عالق هنا منذ الثامنة صباحًا، وما زال الرقم مائة تسعة وثلاثون لم يأتِ بعد؛ لأن أستاذ مسعد لم يشرب كوباية الشاي المتينة، رغم أنني رأيته يشرب ثلاثة أكواب حتى الآن، على أية حال، أتمنى أن يموت في الكوب الرابع، قبل أن أستلم ورقة تكليفي.

الساعة تقترب من الثانية ظهرًا، والشيء الوحيد، الذي اكتشفته في السبع ساعات انتظار الماضية، الطويلة هذه، أن دفعتي ليست شريرة للغاية كما كنت أتوقعها، إنها شريرة قليلًا فقط، أعتقد أننا كنا لنكون أصدقاء رائعين، وكنت لأحظى بذكريات لطيفة ومغامرات مجنونة أحكيها لأحفادي عندما تسقط أسناني، لكنني لم أكن في حالتي الطبيعية للخمس سنوات الماضية، وكنت ممسوسًا بشيء شرير، عزلني عن البشر لفترة طويلة، فترة لا أعتقد أنني سأحبذ تذكرها في أي جزء من حياتي، كما لا أعتقد أنني سأحظى بأحفاد أو أطفال ذات يوم، لأسباب كثيرة، أنا واثق أنها ستكون غير منطقية بالنسبة لك.

تفصلنا ساعة عن موعد إغلاق المصالح الحكومية، وساعتين عن موعد حظر التجول، وسيعود المتقدمين للتكليف من محافظات بعيدة لمحافظاتهم تحت إشراف حراسة مشددة من قوات مكافحة الليل، ونعم، الليل هو شيء نكافحه في هذا العصر، أكثر شرًا وظلامًا من أي وقت.

عندما ظننت أنني سأغادر كما جئت اليوم، وجدت الطابور الطويل يُؤكل في ثوان، واستغرق الأمر عشرة دقائق بالتمام؛ لأصل إلى مكتب الأستاذ مسعد، رجل خمسيني متجهم، يرتدي نظارة قديمة الطراز، شعره الأبيض خفيف كشبح، وجسده نحيل كميت، وقميصه سكري باهت، بلون الشاي بالحليب، وبنطاله عجزت عن تحديد درجته، لكنه شيء قريب للغاية من الأخضر الغامق، في المجمل أسلوبه في الملابس كان باهتًا للغاية، قديمًا جدًا، وبعيدًا عن الأناقة، شخص لن تميزه في الشارع، من تكرار هيئته، على عكسي، مع معطفي الأسود الطويل، وقفازاتي الجلدية، بطريقة ما، كان كل إنش من جسدي مغطى بالقماش، كما لو كنت مصابًا بمرض معدي.

تحدث أستاذ مسعد بصوت قوي، عجزت عن فهم كيف خرج من جسده الضئيل:

-أنتَ قاسم الدالي؟

وحملق في وجهي مندهشًا، هززت رأسي وأنا أضع كفاي معًا:

للأسف.

-إيوة أنا يا أفندم.

كان ينظر لأوراقي الثبوتية كمن يفحص جنية ورقي؛ ليتأكد أنه أثري حقيقي وليس مزيفًا، قبل عرضه في مزاد في السوق السوداء، ترى أي نوع من المزادات سيعرضني فيها أستاذ مسعد؟

-إنت من عيلة الدالي؟ عيلة الدالي المعروفين؟

سألني بدهشة، وقد توسعت عيناه الضيقتان حتى باتتا كحبتي ليمون، بينما أجبته بحسرة:

-إيوة، عيلة الدالي المعروفين.

هز رأسه الكبيرة، المثلثة، وأظهر أسفه، إن كان يمتلك أسفًا أصلًا أسفل هيئته الوقحة المجعدة، وهو يُعيد نظره لأوراقي المغلفة بالبلاستيك:

-كانت حادثة صعبة، تعزياتي.

Visual Watermark

-متشكر.

أجبته بضجر، مع أجمل ابتسامة صفراء لدي، ولاحظت أن بقية الموظفين في المكتب بدأوا في جمع أغراضهم والمغادرة، إلى متى سيستمر وجودي في هذا المكان؟ لو لم أكن آخر ذكر حي من العائلة لكنت شطبتني منها منذ زمن وسافرت بعيدًا؛ لأعيش في الجبال.

ظهر التعجب في صوته وهو يقول:

-وكمان عندك موهبة والدك، مش معقول!

يا لهذا الحوار المليء بالأسف! لم أجبه واكتفيت بإيماءة بسيطة.

هذا العجوز الممل يتحدث وكأنه يعرف كل شيء عن مواهب عائلتنا، أو عن مواهبي.

-حلو جدًا، أنا لَقيتلك الوظيفة المناسبة ليك، أنتَ ولد محظوظ.

قال بحماسة وهو يشير بسبابته إليّ ويميل بجسده نحو المكتب، وقابلته أنا مع ذات الابتسامة الصفراء المؤدبة:

-معتقدش.

وعلى الفور ارتدى قفازين جلديين، وبدا وكأنه لا يسمعني، ثم فتح أحد أدراج مكتبه وأخرج ورقة صفراء، أصابني لونها البشع بقلق في معدتي، ثم أخرج ختمه الأزرق ووضعه في أسفل الورقة الصفراء، التي ستحمل قرار تكليفي، وكتب بعض البيانات من بطاقتي الشخصية، ثم غلف الورقة بطبقتين من البلاستيك، بآلة تغليف الورق الشبيهة بآلة صنع المعكرونة، وقدمها لي.

-اتفضل يا باشا، ورقة تكليفك.

نظرت إلى الورقة على الفور، وتحديدًا إلى خانة المسمى الوظيفي:

-مفتش ليل؟

صرخت باستنكار، بينما أكد الرجل الجالس المعلومة وهو ينظر لردة فعلي باستغراب، بالتأكيد توقع أن أكون سعيدًا ومبتهجًا بحصولي على وظيفة أبي وأسلافي، لكنني لن أكون سعيدًا بهذه الوظيفة بالتحديد.

-أيوة.

-بس أنا مش عايز أبقى مفتش ليل، أنا مدخلتش كلية علوم قديمة خمس سنين عشان أكون مفتش ليل، وبعدين دي.. دي شغلانة كلها لمس.

قلت منفعلًا، أي جنون يضعني فيه هذا الرجل؟ حتى وإن عنى هذا تعرضي لمحاكمة عسكرية؛ لرفضي لتكليفي وجعلي عبرة لمن لا يعتبر، فأنا أبدًا، أبدًا لن أعمل في وظيفة مليئة باللمس، الجحيم، الذي عشت فيه لخمس سنوات لن يتكرر ثانيةً، على جثتي، فليعدموني أو يجردوني من ألقابي، لكنني لن أكون أبدًا مفتش ليل.

-إنتَ اتجننت يا حضرت؟ إنتَ عارف يعني إيه ترفض تكليفك؟ إنتَ عايز تتعدم إنتَ وبقية عيلتك؟

-ومالها عيلتي دلوقتي؟ أنا اللي برفض مش هم.

استنكرت غاضبًا.

-ما هو عشان معلموش حضرتك قيم وأساسيات المملكة، وروح التكليف وأهميته للشعب، بأنانيتك دي يا أستاذ ورفضك لتكليفك إنتَ عارف كام حد من الشعب ده ممكن يموت؟

ما خطب ذلك الرجل، يحولني إلى مجرم حرب فجأة؟

Visual Watermark

-حضرتك أنتَ الأناني هنا، إعجابك السخيف بوالدي خلاك تكتبلي الورقة العقيمة دي عشان أبقى زيه، حضرتك بأي وجه حق تقرر مستقبلي الوظيفي ومسار حياتي؟ والدي مش موجود هنا عشان يشوفك بطل ويمضيلك أوتوغراف.

-ما هو كويس إنه مش هنا، عشان لو كان شاف أخلاق ابنه دي كان هيموت محسور، أنا كان ممكن أغيرلك تكليفك لو طلبت باحترام، لكن عشان أسلوبك ده، أنا هرفع عليك قضية قدام مجلس العموم لو فكرت ترفض تكليفك أو تتهرب منه يا أستاذ.

آلت الأمور إلى شكل أسوأ مما توقعت، الجميع يكره تكليفه في مصر، مثلما يكره صورته في البطاقة الشخصية، لكننا مجبرون عليهما، ذكورًا وإناثًا بالتساوي، خاصةً مع الانخفاض الكبير في عدد السكان، مع تفشي العقم، والأمراض النفسية، التي جعلت الكثيرين يعزفون عن الزواج من نسخ شبيهة منهم؛ لذا لجأ الكثيرين إلى التبني، وعندما قل عدد الأطفال المتاحين للتبني ظهرت عصابات سرقة الأطفال الرُضع، وكان ذلك سببًا آخر للعزوف عن الزواج والإنجاب، قال الناس (لماذا أُنجب طفلًا ويأخذه غيري)، لكن مجلس العموم الأعلى أصدر قرارًا بإلزام عائلات محددة بالإنجاب حتى عدد محدد من الأجيال، وإن اكتشفوا أن أحدًا منهم مصاب بالعقم، سيُعالج بشكل مجاني على نفقة المملكة المصرية.

كانت عائلتي، لسوء حظي، إحدى العائلات الملزمة من مجلس العموم بالاستمرار في الإنجاب، على الأقل طفلين لكل فرد، وإن أنجبنا أكثر فلا ضير، طالما لم نزد عن خمسة أطفال للفرد، وتظل مكافئات إنجاب كل طفل محفوظة ويتسلمها والدي الطفل بمجرد تسجيله في السجل المدني؛ لهذا لن أُعدم إن رفضت تكليفي، لكن أفراد عائلتي من الإناث سيُعدمن، بما أنهن أتممن مهمتهن في الإنجاب ووصلن لسن اليأس، سارة أختي فقط من ستنجو من هذه الكارثة بما أنها ما تزال صغيرة ولم يستفد المجلس منها بعد.

تبًا، تمكن مسعد هذا من إمساكي من يدي، التي تُؤلمني حرفيًا، وألقى بي في النيران.

هل تعرف لماذا المصحات النفسية هي الأكثر انتعاشًا في مصر في القرن العشرين؟ لأننا نملك وحشًا كبيرًا يُدعى التكليف، ووحشي هو الأسوأ.

Visual Watermark

مفتش ليل

كان جدي توفيق الدالي من أوائل المتطوعين لمساعدة مجلس العموم للقضاء على الوباء، فبعدما قضى الوباء على والده وشقيقه الأصغر، فقد قتلهما رجل مصاب، اعتبر نفسه رجل المنزل، ورأى أن من واجبه أن يسترد حق عائلته بمطاردة ذلك القاتل، الذي سيموت فيما بعد، دون أن يتمكن جدي من أن يمسك به، لكنه سيقدم الكثير في المقابل من أجل العائلات الأخرى.

ظهرت أولى إسهامات جدي بمجرد دخوله إلى مكتب التطوع التابع لمجلس العموم، الذي كان في ذلك الوقت مبنى من طابقين في الدرب الأحمر، فقد لمس عن طريق الخطأ ورقة مصابة كانوا على وشك التخلص منها، وعلى عكس المتوقع لم يظهر جدي أية أعراض للإصابة، حتى بعد أسبوعين من وضعه في حجرة مغلقة، وعندها أدرك مجلس العموم، أن هناك أفرادًا يحملون مناعة ضد الوباء، وبدأت عملية التقصي الشهيرة، التي استمرت لعامين ونصف، وعرفت باسم عملية الدرب الأحمر، حيث أرسل مجلس العموم مفتشين في جميع أرجاء القاهرة ومحافظات الدلتا وإلى قرية جدي في قنا؛ لإيجاد الأشخاص الذين يشبهونه، وصحيح أن ذلك أسفر عن مقتل مئات الأشخاص، فقد كانت آلية الاكتشاف هي تعريضهم لأوراق مصابة، فمن لا تظهر عليه الأعراض ينجو بحياته وتُسجل بياناته للبحث والمراجعة، ومن تظهر عليه الأعراض تطلق رصاصة في منتصف رأسه على الفور، وكان ليستمر سلسال الوفيات هذا، لولا تدخل الخديوي لإيقاف العملية؛ لتنتهي رسميًا في شتاء ١٨٧٤م، مخلفة وراءها ما يقارب من ثلاثين ألف قتيل، وستة عائلات يحمل أفرادها مناعة كاملة ضد الوباء، عائلتي، عائلة عبدالهادي، عائلة الصوّاف، عائلة السيد عبد الدايم، عائلة أبو الدرج وعائلة نزار، وأعطيت هذه العائلات لقب البكوية(5)، وأصبحوا عائلات مقدرة ومرغوب في مصاهرتها، حتى من أكبر العائلات وأغناها، طمعًا في دمائهم الثمينة، التي سيُستخرج منها بعد ذلك اللقاح الأول المضاد للآثار الجانبية للوباء كالعقم والنزيف والرعشة، والذي سيثبت فاعليته للقليل من الوقت، رغم أن المتلقي سيحتاج لتجديد الجرعة كل ثلاثة أشهر؛ ولعيوبه الكثيرة طُور لشكل أكثر فاعلية عام ١٩٠٠م.

الإسهام الثاني، الذي قدمه جدي وكان أحد الأسباب المباشرة، لفصل مجلس العموم لمجلس أعلى وأدنى، هو اكتشاف أن هناك أفرادًا بإمكانهم التلاعب بالكلمات، التي تُكون الوحوش، وإبطال مفعولها دون أن يصابوا، سمي هؤلاء الأشخاص بذوي القدرات اللمسية، وعينوا إجباريًا كمفتشي ليل، وهو لقب وظيفي صنع من أجلهم، وأنشئت مديريتهم الشهيرة، مديرية مفتشي الليل في الدقي.

بالطبع كانت هناك قدرات أخرى غير القدرات اللمسية، لكن المجلس لم يهتم بها؛ لأنها لم تكن ذات تأثير مباشر على الوباء، رغم ذلك عُين ذوي القدرات الشمية، الذين يستطيعون اكتشاف وجود ورق مصاب من رائحته، في قسم الصحة الورقية في مديرية مفتشي الليل.

سكن جدي شقة في إحدى عمائر المغربلين في الدرب الأحمر؛ ليكون قريبًا من مقر عمله، وكان إيجار شقته يُدفع من ميزانية خصصها مجلس العموم لمفتشي الليل، كدعم نفسي لهم خاصة وأن أغلبهم كانوا من سكان الأقاليم، الذين اضطروا لترك عائلاتهم خلفهم والانتقال إلى القاهرة، وتمكن جدي بعد ثلاث سنوات من العمل الجاد، من جلب من تبقى من عائلته للعيش معه، زوجته تيتة مريم، ووالدته ألطاف، بينما بقيت أخته وزوجها، وأخيه الآخر في البلد؛ لرعاية الأراضي والمواشي.

تزوج جدي وجدتي في سن صغيرة، عندما كانا في الثامنة عشرة والسادسة عشرة على التوالي، كانت جدتي ابنة عمه المتوفي، وكانا يحبان بعضهما منذ أن كانا أطفالًا، ورغم أن جدي قد عرضت عليه الكثير من العائلات النبيلة والثرية الزواج من بناتهن من أجل دمائه، إلا أنه بقي يرفض بإصرار، مؤكدًا أن اسمه لن يرتبط باسم امرأة أخرى سوى جدتي.

في عام ١٨٧٨م، رزق جداي بطفلهما الأول، عمي عادل، بعد ثلاثة إجهاضات، فلسن جدتي الصغير، وجسدها النحيل، لم تكن صحتها جيدة جدًا؛ لإكمال حملها، وتولت حماتها، جدتي الكبرى ألطاف،

Visual Watermark

تغذيتها بشكل جيد، ورعايتها خلال فترة حملها حتى وُلد عمي.

في عام ١٨٨٠م، رزقا بطفلتهما الوحيدة، عمتي ناهد، وكانت قوية الشخصية منذ صغرها، على عكس أخيها الأكبر، الذي وُلد ملفوفًا في الفضول والكتب، وأصبحت عائلتي مغمورة في سعادة جمة، وقد ترقى جدي في عمله حتى أصبح مفتشًا كبيرًا، وانتقلت العائلة من منزلها الضيق في الدرب الأحمر، إلى شقة واسعة في عمارة راقية في شارع سليمان باشا في وسط البلد، لكن سعادة العائلة لم تدم طويلًا، فقد توفيت جدتي الكبرى ألطاف، وحزن عليها جداي كثيرًا، واستمر حزنهما لعام، حتى علمت جدتي أنها حامل مرة أخرى، سنة ١٨٨٦، وعندما وُلد والدي، خلع جدي رداء الحزن، وأظهر رداء الفرح والسرور، وأصبح والدي، يوسف، الابن المفضل لدى أبيه، فكان يصحبه دائمًا لعمله، أكثر مما صحب أخويه.

وعندما كبر الأخوة الثلاثة، ورغم شخصياتهم المتعاكسة، فقد كان عادل كثير الفلسفة، والتحدث عن النظريات العلمية، وعادة ما أمضى مراهقته في صنع المقالب العلمية، وحول غرفته في منزل العائلة إلى معمل، ودخل إلى كلية طب القصر العيني، رغم ذلك، امتلك روح الأخ الكبير بداخله، وعادة ما كان يوقف أخويه عن القيام بالمزيد من الأفعال المتهورة، بينما كانت عمتي ناهد، فتاة حيوية وقوية الشخصية، لا تتوقف عن القفز في أرجاء المنزل، ولم تترك منزلًا في الحي إلا وتشاجرت مع أطفاله عندما كانت صغيرة، وكانت محبة للفن والأزياء، ورغم أنها تأخرت عامين عن دخول الجامعة؛ لأنها كانت راغبة في العمل في بوتيك وتجرب حياة الاستقلال، إلا أنها في النهاية دخلت لكلية الآداب قسم الوثائق والمكتبات، وقررت أن تفهم أكثر عن الورق وكيف يرتبط بالوباء، أما والدي فقد كان مغموسًا في شيء مظلم، خاصة وأنه كان الوحيد بين إخوته من ورث قوة والده اللمسية، وقضى مراهقته في تعلم كيفية السيطرة عليها، وكان محبًا للشعر، واعتبره سبيلًا لتخليص روحه من السواد، الذي يكتنفها، ودخل كلية الآداب قسم لغة عربية، وكان يعرف أنه لن يعمل في هذا المجال؛ فوظيفته مقررة منذ لحظة اكتشاف هبته، وتقلبت شخصيته بين الخجل والمرح، لكن ما جمع شخصياتهم المتناقضة معًا، هو الفضول وحب المغامرة، وانتهى بهم الأمر إلى إنشاء مجموعة سرية مكونة من ثلاثتهم، أسموها فرقة الرجال الأموات، وقد كان والدي، بالطبع، من اختار الاسم، فقد اعتبره اسمًا شاعريًا، بما أنهم يسعون؛ ليكونوا أبطالًا ويقدموا المزيد من العلم لإنقاذ وطنهم من الوباء، وبما أن جميع الأبطال يموتون، فهذا يجعلهم رجالًا أمواتًا، ولم يبدي أي من أخويه اعتراضًا على الاسم، فكلاهما لم يجدا بديلًا أفضل، ورفعوا شعارهم الشهير «ورابعنا ليل، وخامسنا موت، وسادسنا غايب»، واعتبروا أنفسهم أشخاصًا خارجين عن القانون، فقد خرقوا قانون حظر التجول الليلي، لعشرات المرات.

لم يعرف جدي عن أمر فرقة الرجال الأموات، سوى بعد أن نشرت عمتي بحثهم الأول عن أنواع الوحوش، فقد كان ثلاثتهم خائفين من معرفة والديهم بما يفعلونه، خاصة وأنهم يلقون بأيديهم في النار، وهذا ما دفعهم لاعتبار أنفسهم مجموعة سرية، وأقسموا على الحفاظ على الأمر سرًا عن والديهم مهما كلفهم الأمر.

بعدما مضى غضب والديهم، وإدراكهم أنهما غير قادرين على إيقاف أبنائهما، تركوهم للعمل أسفل أعينهما، وتمكن والدي وأخويه من حل الكثير من القضايا، وهم في الثالثة والعشرين، الحادية والعشرين والخامسة عشرة على التوالي، منذ عام ١٩٠١م، أغلب الوحوش وتفسيرات الظواهر، التي تُدرس الآن لطلبة كليات الطب، والعلوم، والعلوم القديمة، كان والدي وأخوته من كشفوها، وحللوها ونشروها في الكتب، وأصبحوا مشهورين لدى العامة بفرقة الرجال الأموات، والأخوة الثلاثة من عائلة الدالي.

في ١٩٠٨، انتقلت العائلة كاملة إلى عمارة أخرى في شارع سليمان باشا، بنيانه أكثر اتساعًا، واشترى جدي فيه ثلاثة شقق، شقة للعائلة كاملة، وشقتين لأبنائه الذكور، وكان عمي عادل وقتها قد تزوج وينتظر طفله الأول، وما يزال بيت العيلة الكبير، راسخًا في شارع سليمان باشا، شاهدًا على ما جنيناه وما خسرناه، وفي ذات العام أقر مجلس العموم الأعلى ما أسميناه بقانون عادل الدالي، حيث سُمح

Visual Watermark

أخيرًا بدخول الكهرباء لجميع منازل المواطنين بغض النظر عن طبقتهم الاجتماعية.

بقي الأخوة الثلاثة معًا، رغم أنهم عملوا في وظائف متفرقة، فعمل عمي عادل كطبيب في القصر العيني، وعادة ما كانت تستعين المديرية بخبرته ورأيه في القضايا المهمة، أما عمتي، فقد افتتحت مصنعًا لتصنيع الورق المغلف، الذي تستخدمه المصالح الحكومية، بالإضافة لعملها المكتبي في قسم الأرشيف في المديرية، ووالدي عمل، كما هو متوقع، كمفتش ليل، وهكذا، أصبحت عائلة الدالي، عائلة مقربة من السلطة والطبقة النبيلة، وحصد أعضاء فرقة الرجال الأموات الثلاثة، ألقابًا نبيلة، فوالدي وعمي كانا من ملاك لقب الباشا، وحملت عمتي لقب هانم، وأصبحت جدتي مريم هانمًا.

أقترب من المنزل، ويزداد شعوري بالاختناق، والورقة الصفراء في جيبي تشعرني بالمرض، فأقرر أن أستريح قليلًا في مقهى چروبي، المقهى، الذي اعتدت أن آتي إليه مع والدي، عندما كنت صغيرًا، فنتحدث عن الكثير من الأشياء، عن العمل والمدرسة، وعن كيف نتشابه، وذلك أكثر ما كان يقلق والدي، وأظنه أمل بطريقة ما، ألا تتشابه طرقنا وآلامنا بأي شكل، لكن ها أنا الآن، أعود مهزومًا أمام القانون وأمام عقلي، أتعرض للخيانة من كفيّ، ولا أجد ريح والدي أينما التفت.

واجهة محل چروبي(6) تلوح أمامي، بينما أقترب منها بخطواتي البطيئة، أغلب العاملين في چروبي أشخاص لا يمتلكون هبة خاصة، أو من فقدوا قدراتهم اللمسية وفُصلوا من المديرية، أو أشخاص لا ينحدرون من عائلات مُطالبة بالإنجاب، مثلهم مثل بقية العاملين في الوظائف الحكومية المكتبية، وكان ذلك أحد قرارات مجلس العموم المُلزِمة، ألا يعمل أشخاص من ذوي القدرات اللمسية والدماء المنيعة في وظائف لا يقررها المجلس لهم، وكانت تلك إحدى القرارات، التي رأيتها مزعجة وغير عادلة، فهناك العديد من الأشخاص، الذين لا يمتلكون هبة، لكنهم يمتلكون عقولًا يمكنها أن تغير وجه العالم، لكن مع ذلك، كون موتهم وحياتهم لا يهمان مجلس العموم في شيء، هي هبة سعيدة لا تُقدر بثمن، أن لا يتوقع العالم منك أي شيء، هؤلاء الرابحون في هذه اللعبة.

المقهى اليوم ليس مزدحمًا جدًا، خاصةً وأن الساعة تقترب من موعد حظر التجول، تحركت تجاه طاولتي المعتادة في نهاية المطعم، مع أريكة حمراء بحواف ذهبية، الطاولة من خشب الأبنوس منحوتة في هيئة نصف دائرية، يواجهها على الجدار المقابل لوحة كبيرة، مستطيلة بإطار خشبي مطلي بماء الذهب، اللوحة مصنوعة من القماش، وتحوي أسماء أفراد عائلة چروبي، من الأب المؤسس أنطونيو چروبي وحتى المالكة الحالية تريزا چروبي، القاطنة في الطابق الثالث في عمارة چروبي، وربطتها علاقة صداقة متينة مع جدتي مريم هانم، لديها ابنة وحيدة تعيش في إيطاليا مع زوجها وأبناءها، بينما يسكن معها، هنا، في شقتها في الطابق الثالث، حفيدها من ابنها الأكبر المتوفي، أنطونيو، وهو من يساعدها في إدارة المقهى، إنها امرأة قوية، ما زالت تقف باستقامة بالرغم من عمرها الثمانيني، ويُقال أنها أكثر من عاش من عائلة چروبي.

تذكرني تلك اللوحة العائلية في المقهى، بشجرة العائلة المحفوظة بحرص في غرفة نوم جدي وجدتي في منزل جدي، لفافة قماشية طويلة وضخمة، مطرز على طولها أسماء أفراد العائلة، جذورها أجداد جدي، وعلى أوراقها خِيطت أسماء أبناءهم وأحفادهم متتابعة حتى اسمي، وتعمل والدتي وجدتي على تطريز أوراق جديدة من خلالي، ربما يجب أن أستمع لهما وأنجب خمسة أبناء ثم أتقدم بقرار لرفض لتكليفي وأُعدم.

اقترب من طاولتي نادل جديد، لم أره في زياراتي المتكررة سابقًا إلى المكان، بدا قادمًا من الصعيد، ولديه ابتسامة مُرحبة، سألني عن طلبي فأخبرته بطلبي المعتاد، وشعرت بالراحة؛ لأنه ما زال لا يعرف أنني من عائلة الدالي، ولن يصيب رأسي بالصداع، فالجميع هنا يتعامل معي كما لو كنت وليًا، أو جنيًا قادرًا على تحقيق الأمنيات عندما أفرك كفاي معًا، أتمنى لو يعلمون أن لا خير يأتي من هذه الأيدي.

أثناء انتظاري لطلبي المعتاد، من الشاي بلبن وآيس كريم الفراولة، أخرجت ورقة تكليفي، الصفراء البشعة، من جيب سترتي وأعدت قراءتها ثانيةً.

Visual Watermark

كل البيانات كُتبت بآلة كاتبة في الدفترخانة التابعة لمجلس العموم الأعلى: حُفر اسمي فوق الغلاف البلاستيكي في خانة الاسم، وفي الأسفل ذُكر مكان استلام التكليف (مديرية مفتشي الليل) في الدقي، تاريخ استلام أمر التكليف (١٢ ديسمبر ١٩٥٤)، تاريخ بدء التكليف (٢٣ ديسمبر ١٩٥٤)، جيد في يوم ميلادي الرابع والعشرين، ربما يجب أن أجد طريقة لأنتحر بها خلال الأحد عشر يومًا المتبقية لي قبل بدء التكليف، وأتمنى ألا يستطيع أحد إنقاذي، أو ربما يتضح أن جدي كان عليه تار ويجب أن أدفعه أنا ويقتلونني، أو أبحث عن طريقة للخروج من مصر دون أن يعرف أحد.

ابتسمت كالأبله وأنا أحلق بخيالي حيث نجاحي في الهرب والانتصار على وحش التكليف، لكن أوقفني عن ابتسامتي نظرات النادل الجديد المتعجبة لي، لذا تحمحمت وأبعدت ورقة تكليفي جانبًا وأفسحت المجال على الطاولة؛ ليضع طلبي المعتاد، وصحيح أني قد توقفت عن تناول الطعام والشراب، خارج المنزل، منذ بدأت أزمتي العقلية الأخيرة، لكن بما أني معتاد على تناول الطعام في هذا المكان، كما العاملون هنا يُحافظون على شروط النظافة وشروط أخرى خاصة عممتها مديرية مفتشي الليل بارتداء قفازات بلاستيكية أثناء تحضير الوجبات لئلا يُصاب أي مفتش ليل بانهيار إذا ما وقعت تحت حواسه النشطة ذكرى ثقيلة، وبالتالي كنت واثقًا أني لن أعاني من أي مشكلة أبدًا، بدأت في الآيس كريم وصوت الست أم كلثوم يتعالى من المذياع في أرجاء المتجر، الذي بدأ ينسحب زواره جماعات وفرادى؛ للعودة إلى منازلهم قبل أن يختطفهم الليل، وأستطيع أن أعرف أن أختي الآن، تدندن مع ذات الأغنية في غرفتها في منزلنا، فهي وأبي من محبي الست، على عكسي تمامًا، فمثلما خالفت عائلتي في كل شيء خالفتهم أيضًا في ذوقهم الموسيقي، فبدلًا من الغناء أحببت العروض الأوبرالية في دار الأوبرا بالأزبكية.

عندما أنهيت كوب الشاي بلبن، كانت نفسي أهدأ، وخطتي وقراراتي قد اكتملوا في عقلي؛ فدفعت الحساب، وخرجت من المقهى، أتمشى نحو منزلي القريب، أطالع العائلات والبشر، الذين يرحلون، مسرعي الخطى؛ ليختبئوا من الليل، ولطالما كان الليل شيئًا يبهرني، أن تتغير السماء ويتبدل لونها، كل صباح ومساء، وكان الجميع يخشونه، لكني أردت أن أعيش فيه؛ لأنه الوقت الوحيد حيث لا يراني أي أحد.

***

عندما دخلت إلى العمارة، صعدت الدرجات إلى الطابق الثالث، ولم أجرؤ على ركوب المصعد، فالأماكن الضيقة تخنقني.

ضغطت جرس الباب، واستمعت إلى الحركة داخل المنزل، مضت ثواني سمعت خلالها صوت ضرب طرف عكاز تيتة مريم على أرضية المنزل، ثم فتحت تيتة الشُرّاعة(7) وابتهج وجهها لرؤيتي، وسارعت تفتح الباب مرددة اسمي.

-قاسم، يا حبيبي، وحشتني، عامل إيه؟

عانقتني بقوة وحنان بذراعيها القصيرتين، مما اضطرني للانحناء لها؛ لتستطيع احتضاني دون أن تؤلمها ذراعاها، ثم دخلت إلى المنزل، وداعبت أنفي رائحة لُقمة القاضي الساخنة، فانكمشت معدتي من الجوع.

-جدتك بتحبك، عارف عاملالك أيه النهاردة؟

قالت تيتة بحماسة تشع من صوتها، فأجبتها مبتسمًا:

-ألماظية؟(8)

Visual Watermark

زي ما بتحبها تمام، أدخل غير هدومك علبال ما أرص السفرة، وقول لأختك تبطل اللي هي مشغلاه ده، الواحد دماغه صدعت.

خرجت سارة، أختي الصغرى، من غرفتها بمجرد أن سمعت تيتة تتحدث عنها، وكانت قد أنهت سهرتها الموسيقية أخيرًا، وهبط على البيت الهدوء.

-يا تيتة، وهو فيه حد مبيحبش صوت الست؟

-يا حبيبتي، لو الست نفسها سمعتك وإنتِ رافعة صوت الغرامافون بالشكل ده هتبطل تغني وتسمع.

قالت تيتة وهي تدخل إلى المطبخ، بينما تبعتها سارة لتناوشها وتساعدها في رص الأطباق، وكالمعتاد، الجميع يتصرف بشكل طبيعي، طبيعي زيادة عن اللزوم، يحاربون رغبتهم في سؤالي عن التكليف، ويتحاشون قول أي جملة تحتوي على كلمة لمس، أو سؤال (عامل إيه)، ويحاولون التعايش مع مظهري الغريب، المغطى بالقماش والجلد، كما لو كنت مصابًا بمرض معدي، وتحاشي المستمر للبشر.

أفادتني إقامتي المتكررة في مصح الأمراض النفسية في السنوات الخمس الماضية في التخلص من شكوتها المستمرة؛ لأنها تعرف أني بحاجة لهذه الدروع للإبقاء على عقلي متزنًا.

خلعت معطفي وعلقته جوار الباب على علاقة الملابس الخشبية العتيقة، تيتة وسارة ما زالتا تضحكان في المطبخ، أتخلص من حذائي، لكني أحتفظ بجواربي، فلا أريد أن تلمس بشرة قدمي العارية السجادة القديمة، فأغوص في ذكريات وأشياء لا تخصني، أنا أهرب وأتجنب، هذا صحيح، لا خطأ في هذا الوصف، لكن عقلي هو وحش لا أرغب في إزعاجه، ومكان لا أحبذ دخوله.

أسير في الممر، الذي يفصل الغرف عن بعضها، أشمر عن ساعداي، ثم أدخل إلى دورة المياه، أغسل يداي ووجهي، وأستمتع بشعور الماء البارد، عيناي البنيتان تختفيان في المرآة، وأرى حوض الاستحمام السماوي خلفي، وتحيطني ذكرى، كانت فيها ستارة حوض الاستحمام مطبوع عليها دببة بنية، وليست سادة كما الآن، أخفض عيناي، وأجفف كفاي في منديلي القماشي، وأعيد ارتداء القفازات، ثم أخرج إلى الصالة.

ماما ترص الأطباق على طاولة الطعام، توليني ظهرها، غير مدركةً أو مدركةً، ربما، لوجودي، لا أعلم، إنها تتصرف بشكل طبيعي، طبيعي للغاية، وتحاول إعطائي مساحتي، مساحة عامة، وتحارب رغبتها في السؤال، وتحارب كلماتها، التي تقفز في مريئها وتصيبها بألم في المعدة، وألاحظ أن وزنها قد انخفض قليلًا منذ آخر مرة رأيتها فيها، إنها ليست نحيلة، لم تكن كذلك أبدًا، كانت دائمة القول أنها (سمبتيك)، كانت أقصر من والدي، وللحق كان الجميع أقصر من والدي، كما كان رشيقًا أيضًا ووسيمًا، امتلك عينين عسليتان وشعرًا كثيفًا، وكانت

والدتي في المقابل محبة للطعام، لكنها حافظت على وزن جيد، بين النحول والسمنة، وكانت أنيقة، وحافظت على ذلك أيضًا، وأعطت لكل مراحلها العمرية حقها من الملابس، واختارت القصات، الألوان والطبعات المناسبة، ملائمةً تمامًا للقب هانم، ولا زالت أكثر من لاءم والدي.

من الصعب أن تكون فردًا في عائلة بها مفتش ليل، خاصةً إن كنت فردًا مقربًا منه، وأغلب مفتشي الليل تنتهي حياتهم الزوجية بالطلاق ويحظون بأسوأ علاقة بأبنائهم؛ لأنهم لا يتوقفون عن التحول، التغير والانسلاخ في كل مرة يعودون فيها من مهمة في خارج المنزل، فالكلمات، التي يلمسونها تترك شيئًا ما في عقولهم وأرواحهم، والأمر لم يختلف مع والدي، لقد كان مهووسًا وغريب أطوار في حالته الطبيعية، تخيل حياته بعد التكليف، لكن والدتي بقيت بجواره، كانت تعلمه كيف يعود دائمًا إلى ذاته، وكأنها ربطته بحبل؛ لتسحبه كلما تاه في الضباب، وتأمل أمي أن أحظى بزوجة مثلها، قادرة أن تربطني بحبل وتخرجني من الظلام، الضباب والجنون، لكنني مجنون ومعتوه أكثر من والدي، وربما أكثر من أي شخص آخر في هذه المهنة، لن أستغرب حتى إن أقدمتُ على الانتحار ذات يوم، إذن لمَ قد أجلب أشخاصًا إلى حياتي المدمرة وعقلي غير المستقر؟ ألا يكفي ما تركته من حيوات غير هادئة؟

Visual Watermark

-هتفضل واقف عندك كتير؟

قالت ماما بنوع من التأنيب، فجفلت.

ما زالت توليني ظهرها، ترفض النظر في وجهي، وتبدو طبيعية للغاية، فاقتربت منها بهدوء، إنها منزعجة، بالتأكيد هي كذلك، خاصة؛ لأنني عدت للإقامة مجددًا في المصحة منذ أسبوع؛ فقد كنت بحاجة لبعض الدعم لتهدئة عقلي قبل ظهور نتائج التكليف، لكن والدتي لا يمكنها أن تتوقف عن كونها منزعجة منذ دخلت إلى سنوات مراهقتي، الأمر فقط أنها تشعر كما لو كانت تحترق، وأنها تعيد اكتشاف فترة البلوغ وصعوباتها مرة أخرى، فلقد كنت طفلًا هادئًا، قليل الكلام، قليل البكاء، أجلس حيث يضعني الآخرون، وأبقى هناك، وأظن أن هذا ما سبب لوالدتي صدمة عندما بدأت مشكلاتي العميقة في الظهور مع بداية بلوغي ومراهقتي، خاصة وأنها لم تعرف من أين جاءت، أظنها كانت مؤمنةً أنني سأكون الابن الهادئ المطيع طوال حياتي، وكنت آمل أن أكون كذلك، أن أظل كذلك، لكن لا أحد توقع أنني سأتحول إلى الابن المضطرب نفسيا.

-وحشتيني.

جاورت أمي مردفًا، فنظرة لي نظرة جانبية ونأت برأسها:

-وحشتك برضو؟ ده أنت مرفعتش سماعة التليفون بقالك أسبوع وسألت فيا.

أشعر بالمرارة المتوارية في حلقها، أرفع يدي، وآمل أن تصل لكتفها، وأن أربت على ظهرها، ثم أستجمع شجاعتي، كل ما أمتلكه منها، وأعانق والدتي، تحني رأسها داخل كتفي، تدافع رغبتها في البكاء، هي أقوى من ذلك، هذا ما تدعو أن تصدقه، أضم أمي أكثر بين ذراعي، وأتأكد أن لا يلمس ذقني أي جزء من جلدها المكشوف أو حتى أي طرف من فستانها المنزلي الأسود.

تبتعد أمي، ولا تطيل العناق مخافة أن اعود لتشنجاتي الغريبة، وأشعر بشيء ثقيل في قلبي، ولا أتذكر المرة الأخيرة، التي حظيت فيها بعناق دافئ مع أمي كأي ابن يحتضن والدته.

إني أدعو أن أكون ابنًا أفضل، أو أصبح قريبًا من هذا المفهوم، على الأقل، أو أموت وتنتهي معاناتي وندمي، وذات يوم ستموت أمي هي الأخرى وكل من يحبني، وتنتهي معاناتنا جميعًا.

تتحاشى أمي النظر في وجهي، وترفض تأمل ملامحي منذ خرجت لآخر مرة من مصحة الأمراض النفسية؛ فما تزال مصدومة منذ دخلتها لأول مرة، لم تتوقف عن البحلقة في وجهي خلال الزيارات؛ لتتأكد أن ابنها ما زال موجودًا في مكان ما داخلي ولم يُستبدل بشخص آخر، ومهما شرح لها الأطباء، لم تفهم، ولا مرة، كيف أصبحت هذا «الكائن» الذي لا تعرفه، رُغم أنه خرج منها.

في المرة الثانية لدخولي المصحة، كانت غاضبة، لماذا لا تساعد نفسك؟ لماذا تعود إلى هنا مرة أخرى؟ لماذا لا تصبح إنسانًا طبيعيًا؟ لم تقل أيًا من هذه الأسئلة في وجهي، لكني كنت أسمعهم في رأسي، في كل مرة تربت فيها كفها على كفي.

أصبحت غاضبةً أكثر في دخولي الثالث، حتى أنها امتنعت عن زيارتي لفترة، أظنها كانت خائبة الأمل، وعندما رأتني ثانيةً، كنت مغطى بالأقمشة من رأسي وحتى قدماي، والفتحتين المتروكتين لي للتنفس من خلالهما كانتا أشبه بتعذيب شديد، حتى الهواء، الذي يلمس الجلد داخل أنفي، كان كفيلًا بجعلي أعاني من كوابيس المرضى وذكرياتهم التعيسة، كنت أفقد السيطرة على حواسي، على جلدي، وبالكاد تمكنوا من إنقاذي، قبل أن أحرق نفسي في حوض الاستحمام الممتلئ بالماء الساخن، آملًا أن تهترئ خلاياي إلى الأبد.

كانت تلك بداية علاقتي بالدكتور طه إسماعيل، أفضل طبيب نفسي متخصص في علاج ذوي القدرات اللمسية في مستشفى القصر العيني، وهو من اقترح علي ارتداء الجلود لعزل جلدي عن العالم، ثم أخضعني لدواء ابتكره يعمل على الحد من مستوى إحساس الجلد لذوي القدرات اللمسية؛ ابتكره لأنه كان من ذوي القدرات اللمسية، وفشل في السيطرة على قدراته عندما أُصيب بسرطان الجلد، ما

Visual Watermark

زال حيًا وحالته تحسنت، لكنه فقد قدراته بالكامل مع الكثير من شهرته، من الجيد أن عقله بقي يعمل.

من المعتاد أن يُعلم الآباء أبناءهم التحكم في قدراتهم الخاصة، مثلما كان من المفترض أن يحدث لي، لكن والدي مات قبل أن يفعل ذلك، هكذا تولى دكتور طه تدريبي على التحكم في قدراتي، وبعد عامين، أصبحت أستطيع التنفس على الأقل دون الحاجة للبقاء في غرفة معزولة لا يدخلها أحد سوى الدكتور، اما المرضين فيدخلون للغرفة في بدلة واقية وقناع واقي كالذي ارتداه الناس في حقبة الطاعون، لئلا أستنشق هواء معبقا بذكريات أخرى، أو يلمسوني بأياديهم غير المعزولة فأنهار أكثر فأكثر.

في المرة الخامسة لدخولي المصحة، رضخت والدتي أمام سطوة الحقائق، رغم أن قلبها مليء بالإنكار، وتوقفت عن النظر في وجهي؛ في أمل، أن تبقى أسئلتها نائمة داخل عقلها.

اجتمعنا، في حدث نادر، حول طاولة الطعام، التي تستريح منذ عرفتها في أقصى الصالة جوار الشرفة، التي لعب فيها والدي وإخوته، كثيرًا، الورق والدومينو، وحللوا قضايا شهيرة مع كوب من الشاي وطبق بسكوت بالسمنة البلدي، حيث حلموا وكبروا، وجاؤوا ورحلوا، واجتمعوا وتفرقوا.

استبدلت تيتة الستارة البيضاء المطرزة على شكل طاووس، بستارة أخرى ملونة بالليموني، في محاولة لإدخال البهجة على هذا «النصب التذكاري المأساوي»، إنه ليس نُصبًا تذكاريًا بالمعنى الحرفي، لكنني لا أستطيع التوقف عن رؤيته هكذا، الجميع في المنزل يتحاشى المرور جوار الشرفة أو الدخول إليها، وتنشر تيتة الملابس فيها على مضض، بعدما وجدت أن نشرها في دورة المياه لا يُعطي نتيجة جيدة.

ملأت تيتة طبقي بثلاث قطع كبيرة من الجلاش باللحم، طريًا يغوص فيه اللحم المفروم الساخن، الذي يقطر بالعصارة، ووضعت لي كشك الألماظية، الذي أحبه، في سلطانية أخرجتها خصيصًا من النيش، وزينت وجه الكشك بالبصل المقرمش، وستكون التحلية طبقًا من لقمة القاضي.

يذكرني تناول الطعام في المنزل، باستمرار، بتلك الفترة، التي توقفت فيها عن تناول الطعام في بداية انهياري، حيث باتت كل قضمة تنزلق داخل حلقي، وتتزحلق داخل مريئي، كفيلة بإصابتي بالجنون، وحتى بعد فترة من العلاج مع دكتور طه، كنت ما أزال أعيش على المحاليل المغذية، رافضًا إعادة تلك التجربة المريرة ومحاولة تناول الطعام.

وضعت ذكرياتي جانبًا وأنا أشعر بتقلص في معدتي، صنعت تيتة هذا الطعام؛ من أجلي، ويجب أن أتمكن من تناوله، وهكذا انخرطت معهن في تناول الطعام بنهم، فأكل تيتة لا أحد يستطيع التوقف عن تناوله بعد القضمة الأولى، واعتاد جدي الترديد بأنه محظوظ؛ لأن تيتة لا تطعم رجلًا آخر بدلًا منه، وأنه سعيد أنه ظفر بيدها قبل أن يظفر بها ابن خالتها، ومنذ زواج جدي وجدتي، لم يسمح جدي لجدتي أبدًا، أن تطبخ الطعام لابن خالتها، إذا ما حدث وزارهم، وسرعان ما توقف الرجل عن الزيارة، ولم يعد يرافق والدته في زيارات المناسبات والأعياد.

تحدثت أختي عن كافة المواضيع غير المهمة، عن صديقتها منار وحفلة خطبتها على ابن عمها الغني، عن أحدث موضة في صبغات الشعر، وعن خناقة عفاف وحلمية، بنات ناظر مدرستها التوأم، كانت تمازحها تيتة، وتحاول ماما أن تُبقي عقلها مشغولًا بالاستماع إلى الحديث وبذل الجهد في إتقان إيماءاتها؛ لتبدو حقيقية.

جميعهن يحاولن التصرف بطبيعية، يتجاهلن رغبتهن في سؤالي حول تكليفي، يحاولن الالتزام قدر المستطاع بتعليمات دكتور طه بعدم الإزعاج، لكني منزعج، رغم كل جهودهن المضنية، لو يتوقفن فقط عن القلق بشأني، والتفكير في، لو يعاملونني وكأنني لا شيء، بدلًا من معاملتي كشيء ثمين، سأستريح من شعوري بالذنب والتقصير نحوهن.

توقفت عن الأكل، تراجعت في مقعدي، ووضعت ملعقتي جانبًا، ثم تنهدت.

-أنا هبقى مفتش ليل.

Visual Watermark

صمتن من فورهن، وهبط هدوء شرير على المكان، نظرن لي بصدمة وقلق، كانوا يعرفون أن هذا سيحدث، الجميع يعرف بشأن قدرات عائلتنا ومصير أفرادها.

مرت دقيقة من الصمت، وعندما تجرأت ورفعت عيني في وجوههن، حاولت أن أبدو غير مهتم بأمر تكليفي، عسى أن يجعلهن هذا غير قلقات بدورهن، لكن ماما انسحبت من السفرة، وأظنها فكرت «إنهم يأخذون ابني مني»، وأظنها أملت، أيضًا، أن ينتهي تكليفي بشكل مختلف عن والدي، وتبعتها أختي في محاولة لتهدئتها، وبقيت تيتة، على رأس الطاولة، صامتة تنظر نحو الشرفة.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

عندما جاءت وحوشي

١٨ يناير ١٩٥٥م.

«مديرية مفتشي الليل في الدقي»

الطابق الأرضي (بدروم)

مضى أسبوعين منذ أن تلقيت مهام تكليفي في مديرية مفتشي الليل في الدقي، قضيتهما مدفونًا وسط أكوام من الملفات الورقية المغلفة بالبلاستيك، وأسفل عشر طوابق متينة من الأسمنت، لا يشعرني بالحياة سوى نافذة مستطيلة صغيرة الحجم، ترتفع أعلى مني فوق الحائط الباهت على يميني، ولا تزورها الشمس سوى عشر دقائق في اليوم، تفوح منها رائحة الرطوبة والتراب، لكني كنت راضيًا، ولا يمكنني أن أكون أكثر سرورًا من هذه المهام المكتبية الموكلة إلي، بل ومستعد لتغليف عشرات الألاف من الأوراق المهترئة، ما دمت لن أخرج من هنا وأذهب في مهمة ميدانية تتضمن الكثير من اللمس.

أعمل في أرشيف التغليف رفقة اثنين من مفتشي الليل المبتدئين ولدينا مدير عجوز يوشك على الخروج على المعاش، يعلمنا كيف نمضي فترتنا التدريبية قبل أن نتوزع على الأقسام.

لا أعرف الكيفية، التي سيختارون بها أقسامنا بعد نهاية الفترة التدريبية، فليس كل من يعمل في المديرية، لديه مهارات خاصة مثلي، وهناك من يُختارون على أساس تخصصهم الجامعي وترتيبهم على أقسامهم، وآخرون يُختارون لنسبة ذكائهم المرتفعة.

تحتوي مديرية مفتشي الليل على خمسة أقسام أساسية:

مفتشي الليل (لعلماء الحشرات والأدلة الجنائية).

مفتشي الليل (لعلماء الوثائقيات والأوراق القديمة والأرشفة).

مفتشي الليل (لعلماء الصحة الورقية).

مفتشي الليل (لعلماء العلوم القديمة).

مفتشي الليل ذوي القدرات اللمسية.

مفتشي الليل (مختصي عزل وتدمير الأوبئة).

عادة ما يُنقل مفتشي الليل ذوي القدرات اللمسية إلى أقسام أخرى، وخاصة قسم الأرشفة، عندما تضعف حاسة اللمس لديهم؛ لذا عادة ما أفكر في حرقي حيًا للقضاء على كل خلية حسية في جسدي، وأسرع من مهمة نقلي لهذا القبر المدفون.

يوسف عثمان، أحد زملائي، الذين أقضي معهم فترتي التدريبية في قسم الأرشيف، والذي أتوقع أن يُنقل لقسم الصحة الورقية، ليس لأنه تخصص فقط في الكلية في أمراض الورق والحشرات، التي تصاحب الورق المصاب، بل لأنه حصد درجة ذكاء (١٨٠) أيضًا، مما يجعله عبقري زمانه.

عادة ما يكون مسؤولي قسم الصحة الورقية أول من يُبلغ مفتشي الليل من ذوي القدرات اللمسية عن وجود ورق مصاب، وإن كانت هناك جرائم بسبب الورق فعادة ما يكونون أول من يبلغ عنها، ويخلط العامة بينهم وبين قسم الحشرات والأدلة الجنائية، فكلا القسمين متخصصين في دراسة الحشرات، لكن الحشرات، التي ترافق الورق المصاب وكيفية القضاء عليها، هي من تخصص مسؤولي قسم الصحة الورقية، أما دراسة الحشرات كأدلة على جريمة ومعرفة مدة وقوعها، فهي من تخصص قسم الحشرات والأدلة الجنائية، والذين بدورهم، مختلفين تمامًا عن الدور، الذي يقوم به مسؤولي الطب الشرعي والأدلة الجنائية العاديون في الجرائم، التي لا يقوم أساسها على الورق.

بشكل أوسع، يقوم عمل مسؤولي الصحة الورقية، على دوريات التفتيش المستمرة لمنازل المواطنين،

Visual Watermark

ومتاجر الكتب، ومنازل الأثرياء ومكاتب الجامعات، وتستغرق المهام التفتيشية عادة شهرًا أو شهرًا ونصف، على حسب عدد الكتب في المكان، ولكنها تنتهي أسرع من ذلك إذا كان هناك بعض الفساد الإداري، فمثلًا، يكثر الفساد من هذا النوع في المزادات، التي تُباع فيها قطع نادرة من أوراق أثرية غير مغلفة، يلزم القانون صاحب المزاد بوجود لجنة إشراف من المديرية، تحوي مفتش حشرات، ومفتش ليل متخصص ومفتش صحة ورقية؛ لضمان عدم حدوث حالة تلبس، أو جريمة، ويُغلف الورق المباع بالبلاستيك، ويُفحص البائع والمشتري نفسيًا وعقليًا بواسطة الأطباء النفسيين وذوي القدرات اللمسية، قبل وبعد عملية البيع؛ لضمان السلامة الشخصية والمجتمعية، وكل تلك البروتوكولات الأخرى المزعجة، التي تقلل من قيمة المزاد وعدد مريديه.

زميلي الآخر في هذه الغرفة، هو محمد أيوب، وأعتقد أن الجميع في هذه الطوابق العشرة يعرف أن محمد لن يخرج من الغرفة الكئيبة هذه، وسيظل فردًا في قسم الأرشيف المغلف لما تبقى من حياته.

حصل محمد على الشهادة الثانوية في محاولته الثالثة، وُلد كابن أكبر لأربعة فتيات في أسرة بسيطة وعادية من دمياط، وعمل والده كوكيل أول وزارة في التربية والتعليم، مع باع طويل من الترقيات المشرفة كمدرس لغة عربية للمرحلة الإعدادية، واستياء لا ينتهي من فشل ابنه المتكرر تعليميًا، في النهاية، نجح محمد في تخطي الثانوية، ورفض أن يدخل الجامعة؛ لأنه، وكما يردد دائمًا، لو دخلتها مكونتش هطلع غير على قبري، هكذا حاول محمد أن يرفع رأس والده في البلد، والتحق بمديرية مفتشي الليل «كمواطن متطوع»، مما يعني أن والديه سيأخذان معاشًا محترمًا، لا يقل عن عشرين جنيه فضة، كمكافأة من الدولة على تربيتهما لمواطن صالح يحاول محاربة الوباء.

أنا متعاطف مع مأساته، رغم أنه يرى نفسه كبطل، ويأتي للعمل أبكر بساعة من الجميع، ولا يتوقف عن الابتسام بإشراق، حياة العاديين، خارج عقولهم بسيطة، أتمنى لو أمتلك حياة مثلها.

-أنا هعملي شاي، حد عايز أعمله معايا؟

قال يوسف في منتصف الحجرة، فأعلم أن الساعة قد وصلت للحادية عشرة، فيوسف دائمًا ما يشرب كوب شاي كل يوم في الساعة الحادية عشرة صباحًا وآخر في الثالثة عصرًا.

يرفع محمد يده، ويشتكي أستاذ عطوان من ضغطه المرتفع ونصائح الطبيب بالابتعاد عن شرب الشاي، ويطلب كوب ينسون، ثم يمر يوسف بمكتبي جوار الباب، ولا يُتعب نفسه بسؤالي بالانضمام إليهم، فالجميع هنا يعرف أنني معقد من تناول الطعام والشراب خارج المنزل.

أقف في زاوية المكتب وأحرك عظامي وعضلاتي، وألعب القليل من تمارين التمدد، قبل أن أعود إلى مكتبي لاستكمال مراجعة الأوراق المغلفة وفرز الورق، الذي نحتاج لإعادة تغليفه، وأخطط لأخذ حمام دافئ بمجرد العودة للمنزل؛ لتخفيف ألام الظهر، التي أصبحت أعاني منها نتيجة العمل لعشر ساعات على هذا الكرسي الخشبي غير المريح.

باب المكتب يُفتح وأسمع خطوات في الردهة، التي تفصل بين الباب الرئيسي للقسم وغرفة الأرشيف، وأستغرب من عودة يوسف السريعة، لكني أعود لعملي على أية حال.

-مين هنا قاسم الدالي؟

أرفع رأسي وأرى الزائر القادم، الذي لم يكن يوسف، بل ثلاثة رجال ببدلات سوداء ونظارات شمسية.

أستعجب من هيئتهم المضحكة، لكني أرفع يدي على أي حال.

-أنا يا أفندينا.

ينظر محمد وعم عطوان إلى المشهد باستغراب، بينما يتقدم نحو مكتبي أحد الرجال الثلاثة، قائلًا:

-اجمع متعلقاتك يا أستاذ قاسم واتفضل معانا.

Visual Watermark

عقدت حاجباي، أي موقف هو هذا، بينما يطالعني زميلي في المكتب، بنظرات غريبة متسائلة.

-ممكن أسأل ليه؟

-هتعرف كل حاجة في الطريق، أرجو إنك تخلص جمع متعلقاتك بسرعة.

شعرت بانقلاب في معدتي، وبدا الوضع غير مطمئن جدًا، لكني لا أمتلك مهربًا، من الواضح أني إن رفضت القدوم معهم، سيحملونني بالإجبار ويلقونني حيث يريدون؛ لذا أخذت معطفي ومحفظتي وغادرت المكتب معهم، قابلنا يوسف ونحن نصعد السلالم لأعلى، نظر لي ولهم باستغراب، لكنه لم يكلف نفسه عناء السؤال، فالجميع في هذه الطوابق العشرة يعلم أنني غريب أطوار لا يحب الكلام.

انتهيت جالسًا في سيارة موريس طراز ٤٨ سوداء، محاطًا برجال متجهمين، محتارًا إن كان يجدر بي السؤال عن وجهتنا أم أصمت لئلا أتعرض للضرب، في النهاية، فعلت ما أجيده، وابتعدت لأقصى اليمين بعيدًا جدًا عن وجه الرجل المتجهم، الذي يجاورني، وراقبت الطريق، وشعرت بشوق غريب لغرفة البدروم المتربة في الأرشيف.

عبرنا الشوارع مبتعدين عن المديرية، حتى وصلنا إلى كوبري بديعة(9)، وكان النيل أسفلنا، مهيبًا وساكنًا، عندما وصلنا إلى وسط البلد، عبرنا ميدان الإسماعيلية إلى شارع ميريت باشا، واستمررنا في الحركة في الشوارع والحارات، واستطعت سماع صوت أذان الظهر يخرج من مكان قريب، فنظرت ثانيةً من النافذة وطالعت السماء المعتمة، وأصابني شعور في قلبي أن الدافع وراء هذه الرحلة ليس جيدًا.

لحظة أن انعطفنا في شارع عدلي، أوقفنا السيارة وترجلنا منها، كان الهواء باردًا في الخارج، والسماء تزداد اعتامًا منذرة بسقوط أمطار وشيك، رأيت رجلًا مسنًا يتحرك وحيدًا بهدوء إلى المسجد القريب، وبدا لي الشارع ساكنًا وخاليًا أكثر من اللازم.

تحركت محاطًا برجلين ويتقدمنا ثالث، سيرًا على الأقدام، فدخلنا شارع محمد فريد، واستمرينا في السير إلى أن توقفنا أمام عمارة ذات واجهة نحاسية مفرغة، تعلوها لوحة مكتوب عليها بنسيون روما الدور الرابع، وزادت تلك اللوحة من استغرابي.

-اسمحولي أسأل يا أفندية، هو إحنا جايين هنا نعمل إيه؟

نظر لي ثلاثتهم بحدة في ذات اللحظة، فانكمشت أسفل معطفي.

-هتعرف كل حاجة لما ندخل.

قال الرجل، الذي أدركت، من إلقائه المستمر للأوامر، أنه قائدهم، وبالفعل دخلنا إلى العمارة، التي يفوح منها رائحة تحمير البصل والثوم، ورائحة صلصة، وروائح أخرى لم أتبينها، فتح أحد الرجال الثلاثة باب المصعد، الذي يتوسط السلم الملتف، فقلت:

-أعذروني، بس أنا بفضل أطلع على السلم.

لم أكن أعرف أين تكمن وجهتنا في هذه العمارة، لكني لم أكن لأحاول وضع نفسي في هذا المصعد المعلق الضيق رفقة هؤلاء الرجال المريبين.

-إنتَ هتركب معانا في الأسانسير.

-معلش بس أنا بتخنق من الأسانسير.

تبادل الرجال الثلاثة، النظرات فيما بينهم، قبل أن يغلق أحدهم باب المصعد، بينما يقول قائدهم:

-يبقى كلنا هنطلع معاك.

لم أفهم لماذا بدا الأمر كما لو أن شخصًا ما وضع تأمينًا على حياتي، أو ربما هم مرسلون لإلقائي من

Visual Watermark

فوق هذه العمارة، مما سيجعلني مسرورًا حقًا إن كان هذا هو الوضع، لكن ليس هذا ما حدث، حيث توقفنا في الطابق الرابع أمام مدخل بنسيون حمل اسم (pension roma)

يقع البنسيون في مواجهة السلم، باب ضيق مستطيل الشكل، حوافه سوداء يُفضي إلى ردهة ضيقة، في نهايتها مكتب الاستقبال البني، الذي يعتاش على الجدار من خلفه، دولاب مفاتيح الغرف، ذو الفتحات الصغيرة، وبجواره طاولة وبضعة كراسي للاستراحة، وبدا لي أنه فارغ أكثر من اللازم.

بمجرد عبورنا الردهة الضيقة وقف شاب قصير وممتلئ الجسد، كان يلازم جانب مكتب الاستقبال، وبدا وكأنه ينتظرنا، مرتبكًا متعرقًا، اقتاد أربعتنا متعثرًا في خطواته نحو مكتب مديره، حيث جلست على أريكة جلدية مريحة، وهكذا استمعت إلى الكثير من الأحاديث، التي ستجعلني مرتاحًا للمرة الأخيرة.

تحدث مدير البنسيون، وكان رجلًا أشقر نصف مصري، لديه لكنة مصرية ثقيلة، رحب بي بحفاوة ولم يكن لدينا وقت لآخذ ضيافة، فالوضع كان خطيرًا جدًا على حد قوله.

-أنا هكون صريح معاك يا قاسم باشا، إنتَ هنا عشان البنسيون بتاعي لقينا فيه حالة تلبس.

فزعت واقفًا من مقعدي:

-حالة تلبس؟

نظرت مدهوشًا للمدير ثم إلى الرجال الثلاثة الغرباء، الذين دهشوا بدورهم من ردة فعلي الغريبة، وشعرت بالخيانة.

-إنتوا جايبيني هنا كمفتش ليل؟

لم أصدق أنني أواجه هذا المصير، وأقف على ساقاي كمفتش ليل.

-بالظبط يا قاسم باشا.

أجاب المدير، فقلت بحزم:

-أنا مش باشا، ولسه مخلصتش تدريبي عشان أبقى مفتش ليل.

حاولت مغادرة المكتب، لكن الرجال الثلاثة أحاطوني في كل اتجاه.

-معناه إيه التصرف ده يا أفندينا؟ أنا محبوس هنا ولا إيه؟

وجهت سؤالي الغاضب لمدير البنسيون الصفيق، الذي أجابني بكل صفاقة:

-أبدًا يا باشا، لكن الموضوع بيمس سمعة المكان هنا، معارفي في المديرية حكولي عنك، وعن مواهب عيلتك، المبلغ المدفوع في المهمة دي كبير يا باشا، وأنا واثق إن حتى الملك مش هيكون عاوز حد يعرف باللي حصل النهاردة، وأكيد إنتَ فاهم.

أشار بيده نحو عنقه، كان يجدر بي قتل نفسي عندما كنت أستطيع، الآن الجميع يمشي ويهددني بإعدام عائلتي؛ لدفعي لفعل ما يريدونه.

اقترب مني أحد الرجال الثلاثة وسلمني ورقة مغلفة تنص بوضوح أني أنهيت فترتي التدريبية وأصبحت أمتلك رخصة مزاولة مهنة رسمية، أصبحت مفتش ليل رسميًا، دون احتفالية تنصيب ودون حلف يمين، إذن ما معنى كل هذا دون يمين أخشى أن أكسره؟ ما معنى كل هذا دون محاولة الحفاظ على الأمانة والشرف؟ وما الذي قد يمنعني من خيانة كل هؤلاء الرجال وتقديم معلومات

Visual Watermark

مغلوطة أو الهرب؟

-دي رخصتك، أنا الرقيب فؤاد محمود، رقيب مراقب من مجلس العموم، وهنكون مسؤولين عن وجودك هنا، أي معلومات هتوصلها هتشاركها معانا وبس، حتى التقرير اللي هتكتبه عن القضية، هيتعرض علينا قبل ما تسلمه للمديرية.

كان كل شيء مقررًا، إنهم لا يخيرونني، لا يمكنني حتى التفكير في أي كلمة قد تحتوي على حرفي «لا» فيها، إن أردت أحافظ على الأشياء المهمة لدي، وهكذا تركنا غرفة المدير وتحركنا عبر الصالة، حيث كانت طاولات الطعام المربعة مغطاةً بمفارش بيضاء، وكان البنسيون هادئ، ورغم أنه وقت الغداء، لكني لم أرى أي شيء سوى أطباق فارغة نظيفة، وكراسي خشبية خاوية، وتلك كانت مرتي الأولى في رؤية إنسان استحوذت عليه ورقة، وأصبحت الكلمات الذائبة على نسيجها تعاسةً تحملها روحه.

فتح مدير البنسيون القفل الثلاثي المتين، الذي عُلق على باب إحدى الغرف، وهو يحادثني بخفوت:

-إحنا مسكناه بالعافية، خلي بالك، وحدة مفتشي الليل بتاعت الجنايات والأوبئة هييجوا أول ما يشموا خبر، وإنتَ عارف إننا لازم نبلغهم قريب عشان البروتوكول، لازم تخلص شغلك قبلهم.

أنهى حديثه ثم ألقوني في هذه الغرفة ذات الإطلالة اللطيفة، أو ما تبقى من بهجة إطلالتها على الأقل، وسمعت الباب يُغلق من خلفي، فأصبحت وحدي تمامًا مع هذا.. المشهد، مجبر على مواجهة الواقع، وواقعي يقول أنني مفتش ليل كان يمكنه الانتحار قبل خمس سنوات، لكنه كان مجنونًا كفاية لئلا يفعل؛ لذلك يخطط لتصحيح أخطائه والقفز من نافذة الغرفة، وكنت لأفعل هذا في الدقيقة، التي دخلت فيها هنا، لكن هذا يعني أنني يجب أن أخطو عبر هذه الدماء، والأشلاء البشرية المبهمة.

إن كنت تتساءل ما هو عمل مفتش الليل بالضبط، فجميع أسئلتك توشك أن تُجاب.

رائحة الدماء المقززة جعلت معدتي تنقلب، السجادة أسفل قدمي تغوص في الدماء القرمزية اللزجة، بعضها ما زال سائلًا، وبعضها تحول لونه إلى لون أسود جاف، وفكرت لوهلة في كيفية تنظيف هذه السجادة من كل هذه الآثار؛ لإعادتها جديدة، هل ستعود نظيفة أصلًا؟ وماذا عن الجدران البيضاء، الجدران التي تلطخت بتموجات متقطعة من اللون القرمزي، وجميع المفارش على السرير الأيمن أصبحت حمراء، وعلى الأرضية جوار السرير، كانت هناك بقايا لامرأة مجهولة، بدت وكأنها سقطت من سريرها وهي نائمة، فنصفها السفلي كان ما يزال معلقًا على السرير، وارتفعت ساقيها لأعلى، إن كانت لفظة ساق صحيحة على هذا الشيء، الذي أراه، أما نصفها العلوي، كان مجثى على الأرضية، حيث تضاعفت كمية الدماء بشكل مهول، وكانت قد فقدت أحد أطرافها، ورأسها مهشم بشدة، لدرجة أن مسؤولي الطب الشرعي سيضطرون لمسح السجادة أسفلها شبرًا تلو الآخر؛ لإيجاد فتات جمجمتها، كما آمل.

انقلبت معدتي بشكل سيء كلما استوعبت المزيد من التفاصيل المقرفة في هذا المشهد أمامي، خاصة تلك العين، التي كانت في ركن الغرفة، كما لو كان قد ألقى بها شخصٌ ما.

حاربت لئلا أتقيأ، كنت بحاجة للبقاء مركزًا وواعيًا، لسببين، الأول: أن التقيؤ سيزيد الأمر سوءً، والثاني: أنني لا أستطيع أن أنهار في غرفة مغلقة وبرفقتي قاتل يمر بحالة تلبس.

الإدراك يزيد من الأزمة؛ لأنه وعلى السرير الآخر، جلس في سكينة تامة، كما لو كان الكون فارغًا إلا منه، رجل ثلاثيني، ملطخ بالدماء من أعلى لأسفل، يطالع في سلام، عش عصفور يُطعم صغاره، يعيش في شرفة الغرفة، وهذا هو رجلنا.

رغبت بالجلوس، كنت أحتاج دقيقة لأستوعب أنني وحدي مع قاتل وحشي، لكني ما زلت خارج مدار عيني الجاني وأفكاره، ويجب علي أن أبحث عن الورقة المصابة، التي تسببت له في هذا التحول إن أردت مغادرة هذا المكان عمّا قريب؛ لذلك سآخذ هذا كوقت راحة مستقطعة، سأتجول في زاوية

Visual Watermark

الغرفة، ولن أتجرأ على الجلوس في أي مكان.

يفترض بي إيجاد الورقة المسؤولة عن الإصابة، ومسح الذكرى البشعة، التي تحملها، قبل تسليمها لمسؤولي العزل والتدمير؛ حيث سيقومون بإذابتها.

تُصبح الأوراق مصابة عندما يلمس شخصٌ ما الورق دون عازل، بينما يحمل أفكارًا أو مشاعرًا سلبية، حيث تعلق في الورقة، وتبقى منتظرة حتى يلمسها شخص آخر دون عازل، فتستحوذ عليه أفكار ورغبات الشخص السابق؛ ويصبح مغيبًا، لا يفعل شيئًا سوى السعي خلف رغبات صاحب الورقة الأصلية.

يمكن القول أن مفتشي الليل لديهم مناعة من لمس الورق، فيستطيعون رؤية ذكريات مالك الورقة، دون أن يتعرضوا للاستحواذ، لكن الشيء الخطير في هذه المهنة هو فك الاستحواذ، قبل تدمير الورقة يجب إعادة الذكريات السابقة الشريرة من جسد المتلبس إلى الورقة المصابة، ثم ستمتص الخلايا في رؤوس أصابعي الحبر، وبعد ذلك سيتولى مسؤولي عزل الورق، تذويبها.

-تفتكر الطير ده هيحس بإيه لو أخدت عياله وهو مش موجود؟

ارتعت عندما صدر صوت الرجل فجأة في الغرفة، فأسقطت الكتاب، الذي كنت أتصفحه.

لقد دخلت لمداره.

أصبحت على رادار مجرم يعاني من حالة تلبس شديدة الخطورة.

تبًا.

انحنيت ألتقط الكتاب الساقط وأعيده لمكانه بينما أفكر في طريقة تخرجني من هنا، نظرت إلى باب الغرفة الأبيض، ورأيت ظلالًا أسفله، أولئك الرجال في الخارج لن يسمحوا لي بالخروج دون إعطائهم ما يريدون، وإذا مت هنا سيعتبرون الأمر ضرر جانبي لعمل نبيل.

لا يمكنني أن أفر الآن، هذه الحقيقة الوحيدة هنا، وكلما تقبلتها بشكل أسرع، كلما زادت فرصة نجاتي.

استدرت إلى المجرم، وكان ينظر لي مباشرةً، عينه اليسرى أصبحت معتمة، وفقدت بياضها وامتلأت سوادًا، على وجهه حروف واضحة ورموز، استطعت أن أقرأ كلمة (خيانة) أسفل عينه اليمنى وانتابني هاجس أن هذه المرأة ليست الضحية الوحيدة له.

حالته صعبة، ومن وضع جسده، يمكنني القول أنه مصاب على الأقل منذ ثلاثة أسابيع، الكلمات أصبحت تلتهمه.

لا يحدث التلبس دائمًا عند ملامسة ورق مصاب، فالعلم أثبت أننا نتفاعل فقط مع الأوراق، التي تحمل معاناة شبيهة بمعاناة مررنا بها.

-إنتَ بتحب العصافير؟

كان هذا كل ما جمعه عقلي من كلمات، مما أشعرني بغبائي، بينما ضحك الجالس كما لو قلت نكتة ممتعة.

-أنا مبحبش حاجة، مبعرفش أحب حاجة.

حاولت التفكير في أي شيء، لكن عقلي أخذ يفكر في الطيور وحسب.

-أومال عاوز تاخد العصافير ليه؟

أعاد ذراعيه للخلف واستند على المرتبة، ونظر ثانيةً للنافذة:

-كنت عاوز أعرف هيحس بإيه لما يفقد عياله.

Visual Watermark

نظر لي فجأة وسأل بحماس:

-تفتكر هو أب ولا أم؟

-هو مين؟

أشار إلى العصفور:

-الطير ده.

كنا نميل بعيدًا عن المسار، الذي يجب أن نسلكه، أو أسلكه أنا على الأقل، بصفتي المسؤول عن هذه القضية.

حاولت تذكر الأساسيات، ماذا كان يقول أبي دائمًا عن الخطوة الأولى في التحقيق مع حالة تلبس؟ لا أستطيع التذكر، لماذا لم أنتبه للحظاته التعليمية تلك؟ لماذا أتصرف كوغد مجنون دائمًا؟ حسنًا، حسنًا، أنا المسؤول هنا، أنا الشخص الواعي هنا، أنا مفتش ليل، لا يجب أن أجعله يتحكم في دفة الحديث، كلما تصرفت بشكل ذكي، وأنهيت مهمتي بشكل أسرع، يمكنني أن أذهب وأختبئ في منزل دكتور طه لشهر كامل وسأكون بخير، لن تؤذيني مهمة واحدة، لقد تدربت، يمكنني فعل ذلك.

-إنتَ تعرفها؟

اقتربت خطوة من الأشلاء الدموية، وأشرت لها، فأجابني بفخر:

-طبعًا، مش أنا اللي قاتلها!

لم ينظر إلى الجثة حتى.

-تعرفها إزاي؟

تساءلت.

-ما هي مراتي.

-مراتك؟ طب وحد يعمل كده برضو في مراته؟

ضحك ثانيةً وشعرت أنني تحولت لأراجوز، لكن على الأقل هناك زوج أسوأ مني.

-طب قتلتها ليه؟

-عشان خاينة، هما محكوش ليك الحكاية ولا أيه؟ هما جايبينك هنا من غير خلفية؟

شعرت بقشعريرة على طول عمودي الفقري، فسارعت بالقول:

-لا طبعًا، أنا عارف كل حاجة، بس.. بس دي وجهة نظرهم، أنا عايز أعرف وجهة نظرك إنتَ، بس إنتَ متأكد إنها خانتك؟

-إنتَ بتكدبني؟ قصدك تقول إني تعبان وفيه ورقة مسيطرة على دماغي؟

اتقدت عيناه كما الجمر.

-لا أنا مش بكدبك يا أفندينا، أنا بس بحاول أفهم، عشان.. عشان أساعدك.

نهض واقفًا، فتحركت للخلف خطوتين.

-لا إنتَ مش مصدقني، إنتَ واقف في صفها، إنتَ أكيد تعرفها، خونتوني كام مرة؟ انطق قول.

اندفع نحوي فجأة، عيناه تشتعلان بالكراهية، كراهية لم يحملها لي أحد من قبل، كراهية أفزعتني، ثم حدث كل شيء بعد ذلك بسرعة.

آخر ما أتذكره عن تلك الحادثة، أنني شعرت بقبضتين قويتين على عنقي، على جلدي، جلدي

Visual Watermark

المكشوف.

اندفعت دماء لزجة إلى أنفي، لكنها لم تكن دمائي، كنت ملطخًا، لكني كنت طاهرًا، وكنت أنا من سفك الدماء، ثم أصبحت مفقودًا في الزمن.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

الفصل الثاني: عن الليل

فكم تَوالى الليل بعد النهار

وطال بالأنجم هذا المدار

فامْشِ الهُوَيْنا إنَّ هذا الثَرى

من أعْيُنٍ ساحِرَةِ الاِحْوِرار(10).

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

خارج عن السيطرة

كانت فريدة هانم الصواف، فتاةً لم تبقى عائلة مرموقة ولم تطلب يدها للزواج بابنها، فالجميع يريد أن يكون صهرًا مع عائلتها، لكنها كانت متزمتةً للغاية بشأن معايير زوج المستقبل، وأعلنتها أكثر من مرة، أنها ستختار الرجل، الذي ستتزوجه بنفسها.

وُلدت فريدة هانم مُختار الصواف، في الثامن من مايو لعام ١٩٣٤م، لأسرة مرموقة، والدها كان زميل دراسة الملك، ووالدتها وصيفة الملكة، وعملت أجيال عديدة من عائلتها كوزراء في مجلس العموم الأعلى، وتناسبوا في سنوات مختلفة مع الأسرة المالكة.

درست الطب في السوربون بتوصية خاصة، وعادت إلى مصر للعمل كطبيبة شرعية، وبطريقة ما، اختارتها والدتي لي؛ لنكون زوجًا وزوجة، وأتمنى لو أنها اختارت وقتًا مبكرًا لإخباري بهذا القرار، قبل أن أتعرض لمثل هذا اللقاء الأول المحرج.

عندما هاجمني معتز، الرجل، الذي قتل زوجته، أصابتني عاصفة حافلة من التشنجات، حتى ظن الجمع من حولي أني أمر بسكرات الموت، ورغم أني قد رأيت ذكريات الكثير من البشر من قبل، أكثر من احتمال عقلي وذاكرتي، خاصة في فترات مرضي الأولى، إلا أنه لم يسبق لي رؤية ذكريات قاتل.

عندما ترى الذكريات كمفتش ليل، فإنك لا تراها كما لو كانت فيلمًا يعرض أمامك، أو قصة تُحكى لك، أنتَ تصبح البطل، ستشعر يداك كما لو أنها أمسكت بتلك المطرقة، وبذلك السكين، سينكمش جلدك وأنت تشعر بالدماء الساخنة تنفجر في وجهك وتلطخك، وستتجعد أنفك عندما تباغتها قطرات طائشة من الدم، لكن لا شيء من هذا حقيقي، وتلك الحقيقة الوحيدة، التي لن يصدقها عقلك.

بالكاد، تمكن فؤاد ورجاله من إنقاذي من بين يدي معتز، ولم يتجرأ الخواجة، صاحب المكان، على التقدم خطوة واحدة نحو الداخل؛ لإنقاذ أي شيء من ممتلكاته، أو لإنقاذ الشخص، الذي ورطه في هذه المغامرة السرية الخطيرة، أنا.

في تلك الأثناء، كانت فرقة من الطب الشرعي ومفتشي الليل قد وصلت إلى البنسيون، وعلى رأسهم، أفضل شخص في الفريق، فريدة هانم الصواف، وأصبح هذا لقاؤنا الأول، الاطمئنان عن كوني لست الجثة المنشودة، خاصةً مع هذه الدماء، التي لطختني نتيجة تمرغي على الأرضية الدامية مع الأشلاء والعظام المهشمة، ونزيف أنفي نتيجة الحالة، التي وقعت فيها، وأول ما فعلته فريدة الصواف هو تأكيدها لعلاماتي الحيوية ونقلي للمستشفى في سيارة إسعاف، وكان مفاجئًا للجميع، أن يخرج شخص ما حي من هذا المشهد المرعب.

عندما أصبحت واعيًا ثانيةً، كنت محاطًا بأشخاص مستائين، والكثير منهم.

أخبرتني الممرضة، التي علقت محلول التغذية، أنني نائم منذ أسبوع، وهو ما فاجأني، أتمنى أن تكون القضية قد أُغلقت في خلال هذه الفترة.

بعد الظهر، كنت أستطيع الجلوس على السرير دون أن أشعر بالصداع والدوار، عندها جاء دكتور طه، الذي اتضح أنه استخدم علاقاته وسلطته لتهديد مدير البنسيون وفؤاد ورجاله، بالإعفاء من مناصبهم إن لم أحصل على جلسة نفسية لائقة، قبل أن يتحدثوا معي في أي شيء.

في الواقع، إن المدير العام لشؤون مفتشي الليل في مجلس العموم الأعلى، هو صهر دكتور طه، الذي تزوج من أخت الدكتور الوحيدة، سُعاد، عندما كان لا يزال موظفًا صغيرًا في المجلس.

-ده إنتَ متبهدل خالص.

علّق الدكتور بمجرد جلوسه جوار سريري على كرسي معدني صغير، فابتسمت.

-من أول مهمة كده كنت هتموت!

Visual Watermark

-تخيل يا دكتور، ما أنا قولتلك مش هنفع في الشغلانة دي.

أسخر، فيجيب:

-تخيلت، ما عشان كده جيتلك.

صمت للحظة يطالعني لمعرفة الأضرار.

-حاسس بإيه؟

-عاوز أروح بيتنا.

-هتروح، بس نطمن عليك الأول، المهم، نفسيًا حاسس بإيه؟

علّق بوضوحه المعتاد، فأجيب منزعجًا:

-يعني مش حاسس إني زي الزفت، يا دكتور؟

فيفاجئني رده:

-على الإطلاق، إنتَ لسه متماسك وحي، وفي خلال نص ساعة هيتعملك فحص نفسي وعصبي عشان نطمئن على الوظائف العقلية والإدراك، بس أنا متأكد إن النتيجة هتكون مرضية، إنتَ مش حاسس إن المرة دي كانت مختلفة عن كل مرة يا قاسم؟

عقدت جبهتي مستنكرًا.

-قصدك إيه؟

-قصدي تدي للتجربة دي فرصة، إنتَ متماسك على عكس كل المرات اللي فاتت، وأكيد إنتَ فاكر زمان كان ممكن يحصلك إيه من مجرد أكلة، تشنجات وهلاوس وشهر في العزل، لكن حاليًا إنتَ كنت على اتصال مباشر مع مجرم عنده حالة تلبس ومع ذلك حالتك العقلية والنفسية متماسكة.

استفزني حديثه، لدرجة أني رغبت في لكمه:

-متماسكةً؟ أنا فقدت الوعي لأسبوع.

هز رأسه:

-ده طبيعي، دي أول مرة تتعامل فيها مع حالة تلبس، أول مرة في الشغلانة بتبقى صعبة لحد ما العقل يبدأ يتعلم يفلتر الذكريات الكتيرة اللي بيستقبلها مرة واحدة.

استنكرت وذكريات الحادث تعود إلى عقلي ثانيةً، فأستوعبها كأنما أشاهد فيلمًا:

-يعني أنا هفضل أقع في الأرض وأتشنج لحد ما دماغي يتعود على الشغلانة؟

شبك الدكتور أصابعه معًا وتنهد:

-قاسم، إنتَ كويس، وبتتحسن باستمرار، مينفعش تخلي التجارب السلبية السابقة تمنعك من التقدم، الخوف ده مجرد طريقة بيتعامل بيها عقلك عشان يحميك...

قاطعت حديثه المزعج:

-بس أنا مش مستعد أختبر عقلي، ويا تصيب يا تخيب، أنا مش هخاطر إني أرجع للمرض والعذاب ده تاني.

-لازم تختبر عقلك، ولازم تواجه دماغك بإرادتك، وإلا هتواجه الشغلانة دي تلاتين سنة بدون إرادتك، مجلس العموم عاوز عقلك وقدراتك وهيستفادوا منهم سواء برضاك أو غصب عنك، إنتَ فاكر إن الدنيا سبهللة، وإنهم هيتعاطفوا معاك لمجرد إنك كنت محجوز في مصحة؟ فيه أكتر من مليون شخص زيك، وكلهم بيشتغلوا، إنتَ لسه صغير، محدش حكالك المجلس ممكن يعمل إيه

Visual Watermark

عشان توصل للي عاوزه.

كالمعتاد، يستطيع دكتور طه أن يدحض كل حجة.

-حضرتك بتفكرني ليه بالحاجات اللي بتضايقني؟

-عشان مش هتبطل تضايقك غير لما تبطل تهرب منها.

قررت التهرب منه منزعجًا:

-بقولك يا دكتور، أنا تعبان وعاوز أنام.

-ماشي يا قاسم، خليك كده، اهرب براحتك، بس مترجعش تندب بعد كده، وعشان تبقى على نور، مجلس العموم هيحقق معاك في الواقعة، وهياخد أقوالك كشاهد رئيسي في حادثة هروب معتز، الت..

حادثة هروب! أُسقط في يدي، فصدح صوتي مصدومًا:

-معتز هرب؟

-إيوة.

أكد الدكتور، ثم نظر لي باستغراب:

-هو محدش قالك؟

نفيت وبقيت ساهمًا أحاول فهم كيف ستتدهور حياتي بعد هذا الخبر.

-لا.

-نط من بلكونة الدور الرابع لما فؤاد وفريقه جم ينقذوك، قلبوا عليه وسط البلد ومصر الجديدة والجيزة، محدش عارف هو فين، ممكن يكون ساب القاهرة وهج للصعيد أو إقليم في الدلتا، محدش عارف، لكن الأكيد حاليًا إن محدش برة الأوضة دي في أمان، وهيحملوك إنتَ المسؤولية.

أوضح الدكتور ما حدث.

-يعني إيه هيحملوني السبب؟ هي القضية لسه شغالة؟

-أومال، وهو عشان هرب يبقى خلاص القضية خلصت؟ ده الشغل كله دلوقتي، ده المديرية كلها مستنياك تفوق عشان تحل المشكلة دي.

تساءلت فزعًا:

-أحلها؟

فأجاب الدكتور ببساطة:

-إيوة تحلها، إنتَ فاكر إن مجلس العموم هيسيبك؟ إنتَ عارف إنتَ ضيعت من تحت إيدهم إيه؟ دي مصيبة، إنت عارف معتز ده يبقى مين؟ ده الابن الوحيد لصديق الملك المقرب، عارف يعني إيه يتقال إن فيه حالة تلبس طالعة من قصر الملك؟ دي كارثة.

-ابن صاحب الملك؟ إنتَ بتهزر يا دكتور؟

لذلك قال ذلك الخواجة أن الملك لن يرغب في خروج هذا السر، الآن أفهم.

-حضرتك متأكد من الكلام ده؟

-مية في المية، جوز أختي كان عندنا في البيت امبارح واتكلمنا عنك وعن الموضوع ده، وقالي إنهم بيحاولوا يغطوا على الموضوع بأي طريقة عشان ميوصلش للجرايد؛ لأنهم لو عرفوا خطة التشجيع

Visual Watermark

على السياحة اللي بدأها الملك في أول السنة والتعاونات الاقتصادية مع الدول التانية هتتلغى كلها.

سألت مدهوشًا:

-يعني أنا دلوقتي مسؤول عن اقتصاد مصر بحاله؟

-عليك نور.

فُتح باب الغرفة بشكل حاد، فوجلنا أنا والدكتور، بينما خرج من خلفه شخص بملابس رسمية:

-معاد الجلسة خلص يا دكتور.

نظر الدكتور طه إلى الرجل الغامض، ثم التفت لي، وقال:

-هيعمل اختبار أخير وبعدين تقدروا تاخدوه لغرفة الاستجواب.

***

كان من كرم مسؤولي الاستجواب، أن يسمحوا لي بالاحتفاظ بقفازاتي الجلدية، لكنهم أخذوا معطفي الثقيل، وتركوني وحيدًا في هذه الغرفة الكئيبة الباردة بملابس المستشفى غير الدافئة، مُكبل اليدين إلى العارضة الحديدية في منتصف طاولة التحقيق، تداهمني ذكريات عجيبة عن الماضي، إحداها عن تلك المرة، عندما قضى والدي، وعمي وعمتي أسبوعًا في غرفة التحقيق في مديرية مفتشي الليل، لا أذكر السبب، لكني أعرف أنها كانت فترة طويلة؛ ليغيبها والدي عن المنزل، وعندما عاد ثانيةً لم يبدو بخير، ولم يعد كما كان ثانية، وبقي هكذا حتى مات، لم أفهم ما حدث له، لكني كنت كبيرًا كفاية لأدرك أن شيئًا سيئًا حدث هناك، وهذا يجعلني أتساءل، بشكل ما، ما الشيء السيء، الذي سيحدث لي هنا أنا الآخر؟

صوت احتكاك معدني، غير مريح، بالأرضية.

-أستاذ قاسم، حضرتك معايا؟ حضرتك فايق؟

أفتح عيناي، الضوء فوق رأسي يتراقص، ورؤيتي معتمة أكثر من ذي قبل.

-اه، أنا فايق.

-تحب تشربماية؟

قدم لي مسؤول الاستجواب زجاجة بلاستيكية صغيرة، لكني رفضتها بلباقة، لا يمكنني تناول أي شيء يقدمونه لي، لا أحد يعرف ما الموجود في طعامهم وشرابهم، إني لا أثق بهم، ولا أعرف ما قد يحقنوني به لإرغامي على فعل أشياء لا أريدها.

-متشكر.

وضع المسؤول القنينة جانبًا.

-اسمي النقيب مصطفى العسّال، أنا مسؤول الاستجواب هنا.

رؤيتي تعود لتتضح، لكن الغرفة ما تزال معتمة جزئيًا.

يجلس أمامي شاب طويل وعريض المنكبين، في نهاية العشرينيات، مع شعر كثيف، وشارب نحيف، عينيه يشع منها الذكاء، رغم أنها تبدو مرهقة، وهيئته توحي لي أنه قد مرت فترة على آخر مرة نام فيها.

-أكيد إنتَ عارف إنتَ موجود هنا ليه.

ينزعج عقلي.

-مجرد فكرة سطحية.

Visual Watermark

قررت لعب دور الجاهل المجنون، يفتح المدعو مصطفى العسال دفتر ملاحظاته الصغير، وأرى بجانبه نتائج اختباري النفسي العصبي.

-إنتَ كنت المفتش المسؤول عن حالة معتز الرشيد؟

-إيوة.

يطرح أسئلته دون أن ينظر في وجهي، مع ملامح جامدة، وصوت ذو نبرة ثابتة، كنوع من أنواع بث التوتر والزعزعة في النفس، كنت قد تعلمت في الكلية، في الأوقات القليلة، التي تمكنت من حضور المحاضرات فيها، كيف يمكننا أن ندفع حالة التلبس للإفصاح عما بداخلها، كيف نتحدث، كيف ننظر، كيف نجلس، ويذكرني مصطفى بالأستاذ، الذي شرح لنا تلك المحاضرة.

-تقدر تقولي إيه اللي حصل قبل ما معتز يهاجمك؟

هززت رأسي إيجابًا.

-كان عاوز يعرف إيه اللي هيحصل لو أخد أفراخ الطير اللي معشش في بلكونة البنسيون، وبعدين اتكلمنا عن الضحية، كانت مراته، وقتلها عشان كان بيشك فيها.

أحصل على انتباهه لبرهة، ويرفع رأسه باستغراب.

-وإيه اللي حصل عشان يهاجمك؟

-فكر إني بكدبه، وإني واخد صف مراته، وإني.. يعني.. كنت على علاقة بيها.

-وإنت كنت على علاقة بيها؟

-لا طبعًا، وهو أنا أعرفها منين؟ ده أنا أول مرة أشوفها يوم الحادثة.

هل هذه الكلمة المناسبة لذلك الشيء شبه البشري، الذي رأيته؟

هز مصطفى رأسه وهو يعود لمتابعة كتابة أقوالي في دفتره السميك.

-هو إنتوا مسكتوه؟

أتجرأ لأكون في موضع من يطرح الأسئلة، مع أمنية سخيفة أن تكون أخبار دكتور طه قديمة جدًا، وقد أمسكوا بالرجل فعلًا.

-للأسف لا، هرب مننا.

تتحطم آمالي، وأسأل سؤالًا أحمقًا:

-طب والعمل؟

تنهد مصطفى، وقال:

-هنحتاج إنك تباشر شغلك بأسرع وقت، حرس الليل، وحرس الحدود وقوات التدخل السريع بتدور عليه حاليًا وأكيد هيلاقوه، أملنا إنه ميكونش برا مصر، ودورك يا أفندينا إنك تلاقي الورقة اللي عملت فيه كده عشان نعزلها.

تبًا.

-هو صحيح إنه قتل قبل كده؟

حصلت على انتباه المحقق ثانيةً، حيث حدق لي بعينين مستغربتين، متسائلًا:

-إزاي عرفت؟

لم تكن لدي إجابة واضحة سوى:

Visual Watermark

-أنا مفتش ليل.

-الظاهر إن الكلام اللي سمعته عن قدرات عيلتك صحيح، فعلًا، معتز قتل صاحب عمره من تلت أسابيع، وبعدين اختفى هو ومراته، وظهر فجأة من أسبوع في البنسيون اللي كان متعود يبات فيه لما بيسيب البيت، حد من النزلاء سمعه وهو بيتخانق مع مراته، وبلغ مدير البنسيون وساعتها اتحفظوا عليه، لحد ما إنتَ جيت.

رانت لحظات من الصمت.

-هو معلش يعني في السؤال، هو مكانش فيه حد غيري تختاروه؟ أكيد كان فيه ناس أكتر خبرة مني تختاروها.

-دي حاجة ترجع للشخص اللي دفع عشان القضية تتحل، مش ليا أنا.

-وهو مين الشخص ده؟

-دي حاجة سرية، معلومات الناس اللي بتدفع مقابل خدمات مفتشي الليل بتفضل سرية.

تبًا للمريض النفسي الشيطاني، الذي دفع مقابل خدماتي، أتمنى أن يموت ميتة بشعة بين فكي وحش متلبس.

أغلق مصطفى دفتر ملاحظاته بكل أريحية وراحة، فهو محظوظ فليس لديه أنامل ملعونة مثل يدي.

- على العموم، بما إن فحوصاتك سليمة، اتفضل معايا عشان نخلص المهمة دي.

-مهمة؟ وهو إحنا رايحين في حتة؟

بُهت وجهي.

-هتعرف كل حاجة لما نوصل.

هذه الكلمة الشيطانية تطاردني للمرة الثانية خلال أسبوع، فأُعامل كما لو كنت حقيبة سفر، أُنقل من مكان لآخر في ذات السيارة الموريس السوداء، متسائلًا حول مصيري، شاعرًا بالأسى حول الذات.

قطعت الموريس، التي قادها رجل عجوز، يعمل كسائق في المديرية، القاهرة نحو الجيزة، قبل أن نتوقف أمام قصر صغير، يقبع في شارع هادئ أغلب سكانه من الباشاوات والوزراء، وجميع مبانيه نظيفة، بتصاميم أنيقة، تُشع منها رائحة العطور والمنظفات مختلطةً برائحة أشجار البرتقال، التي تزين الحي.

تقدم مصطفى العسّال المسيرة، بينما بدأت أشعر براحةٍ أكبر بعد حصولي على كيس من ملابسي النظيفة ومعطف جديد، كان قد جلبه الدكتور لي خلال زيارته هذا الصباح ارتديته في دورة مياه المديرية، ويعتبر الدكتور، الشخص الوحيد، الذي يعرف عنواني ولديه نسخة احتياطية من مفتاح منزلي الجديد، أعطيتها له بمجرد انتقالي، في حال حدث لي شيء ولم أستطع طلب النجدة، كما أني لا أحب الإحراج، الذي ينتابني عندما يراني الآخرون في حالات جنوني المثيرة للشفقة، وتشنجاتي وهلاوسي، لكن الدكتور رأى أوقاتي المحرجة تلك ويعرف كيف يتعامل معها بشكل لا يؤذيني أو يحرجني.

فتح لنا البواب، البوابة الحديدية للقصر الصغير، حيث عبرنا خلال ممر مبلط ومزين بأشجار الفاكهة والأعشاب القصيرة المشذبة.

القصر هادئ، كما لو كان ميتًا، وفارغ من جميع البشر، من الواضح أن البواب قد سُمح له بالدخول كاستثناء؛ للقيام بمساعدتنا خلال التحقيق، وسيقومون بفصحه بعد نهاية هذه القضية؛ للتأكد من كونه بخير، غير مصابٍ ولا يشكل خطرًا.

Visual Watermark

-ده بيت معتز وزوجته، كانوا عايشين هنا مع ابنهم.

-ابنهم؟

فاجأتني هذه المعلومة، وتذكرت حديث معتز الغريب عن أفراخ الطير.

-مات وهو عنده سنتين، ومن ساعتها ومعتز بيتعاطى الممنوعات.

من الواضح أنها قد أثرت على عقله بشكل سلبي، فنحن لا نصاب بمجرد ملامستنا للورق المصاب، بل نصاب بالمآسي، التي تشبهنا، بالأشياء، التي لدينا نحوها استعداد مرضي، ما هو الاستعداد، الذي كان لدى معتز؟ وما هي المأساة، التي تشبهه في هذا المنزل؟ هذه الأسئلة، التي يجب أن أجد لها إجابات وأقدمها لمجلس العموم، وربما الملك، في أسرع وقت إن أردت أن أعود حرًا مرة أخرى.

فتح البواب الباب الداخلي للقصر، فأفضى لنا عن رائحة تراب مزعجة وعفونة، من الواضح أن هناك أطعمة قد فسدت.

عندما دلفنا إلى داخل المكان شعرت بالوحشة، وتساءلت كيف يمكن أن يكون هذا مكانًا شغله بشر لفترة من الزمن؟ بدا لي ميتًا مثل مالكيه.

-هنا مكتب البيه، يا أفندية.

أشار البواب إلى الباب في أقصى اليمين، فقال مصطفى:

-طيب، دوري بينتهي هنا، هأقعد في الكرسي هنا، وأسيبك تأدي عملك بحرية، هفضل هنا لو احتجت لأي مساعدة.

كان واضحًا أن مصطفى العسّال يرغب في التواجد في أي مكان آخر عدى هنا، ولكن إحساسه المرتفع بالواجب والصواب، يمنعه من الركض خارج هذا المكان دون مراقبتي؛ للتأكد من أني لن أركض خارج هذا المكان مثله، وأني لن أفقد وعيي وأموت عندما أجد الورقة المنشودة.

تقدمت نحو باب المكان، الذي أشار إليه، بينما نفض مصطفى من خلفي التراب عن أحد الكراسي قبل أن يجلس عليها.

حسنًا، أنا الآن وحيدٌ أمام العاصفة.

أصدر الباب صريرًا عندما فتحته، وفرقع الزجاج، الذي يغطي فراغاته، كما لو كان سعيدًا بالزيارة.

تركت الباب نصف مغلق، في حالة تعرضت لنوبة مفاجأة، لا أحد يعلم متى سأفقد عقلي ثانيةً، ثم تقدمت وفحصت الغرفة المشمسة.

يمكنني معرفة مدى حب معتز لمكتبه، من الواضح لأي شخص كم كان مهتمًا به عندما كان في حالته العقلية السليمة، فكلا من المكتب والمكتبة الكبيرة مصنوعين بشكل أساسي من خشب الأبنوس، أما الكرسي المريح، فظهره ومقعده مغطيان بجلد بني غالي الثمن.

هناك مطفأة سجائر على أقصى يمين سطح المكتب، بها بقايا تبغ، الشرفة المغطاة بستائر باللون اللحمي، تُفضي إلى إطلالة لطيفة، ورغم حيوية الألوان شعرت في أعماقي، كم أن هذا المكان ميت وخاوي.

جلست على مقعد معتز الجلدي، وتنفست أكبر قدر من الهواء، قريبًا سأضطر لإطلاق سراح أصابعي، وأتركها تتنفس الهواء، هي الأخرى، دون أية قيود، أشتت عقلي عن هذه الفكرة، وأحاول التفكير في شيء آخر، أي شيء بعيد عني، شكل المكتب ومنقوشاته، مدى راحة الجلوس في هذا الكرسي مقارنةً بكراسي أرشيف المديرية الخشبية القديمة.

أفتح أدراج المكتب بشكل عشوائي، جميعها مرتبة، المكتب الأول احتوى على مجموعة أقلام حبر وأوراق مغلفة، تصفحتها جميعًا وتأكدت أنها مغلفة بعناية، وفي الخزنة وجدت ماكينة تغليف

Visual Watermark

الورق اليدوية، كريمية اللون، صغيرة الحجم.

في الأدراج اليسرى، كانت هناك بضعة مظروفات قماشية مزخرفة ومعطرة، ورسائل ودعوات مناسبات، تصفحتها واحدة تلو الأخرى، قبل أن أنتبه لتلك الورقة، التي خرجت متباهيةً من مظروف أحمر مطرز بخيوط ذهبية.

كانت أحد أطرافها غير مغطاة بشكل جيد بالبلاستيك، طرف صغير، لكنه كافٍ لإصابتك بالجنون، تمامًا كما حدث مع معتز.

أخرجت الورقة من المظروف في عجل، دون أن ألمس الجزء المكشوف، بينما أحاول تنظيم أنفاسي، فأمانتي المهنية، وضميري القوي، الذي اكتسبته من والدي، يُحتم عليّ أن أتأكد أن هذه هي الورقة، التي نبحث عنها؛ لأني إن حاولت المراوغة وقدمتها للمديرية كالورقة المسؤولة عن تحول معتز، ولم تكن كذلك، سأخاطر بوقوع ضحايا أكثر بوجود الورقة المنشودة حرة طليقة، وسأكون أنا وعائلتي أول ضحية.

يمكنني فعل ذلك.

لقد تعلمت.

أنا أقوى من عقلي.

ألتقط أنفاسي وأحبسها عميقًا في قلبي، فأشعر به ينبض بعنف، ثم أفتح ليداي أبواب الحقيقة، فينعكس عليها النور قادمًا من الشرفة جواري.

أمرر سبابتي وإبهامي على الجزء المكشوف من الورقة، أغمض عيناي وأسمح لنفسي بأن أرى أبعد مما كُتب عليها.

أنا أكرهها.

سأقتلها، سأفعل بالتأكيد.

تبًا لها تلك الخائنة.

«أحاديث مبهمة.»

كيف يمكنها أن تفعل ذلك بي.

رائحة دم.

تبًا لهذه الآلة الغبية، هذا ما كنت أحتاجه، جرح غبي.

علاء.

شخص ما ينادي من خارج الغرفة، أحاول رؤيته لكني أعجز عن ذلك.

علاء.

ينادي مرة أخرى.

قادم، أنا قادم، سمعتك لست أصمًا.

هوف.

يخرج علاء غاضبًا، مسرعًا لإسعاف جرح إصبعه، بينما أقترب أنا من حيث كان يقف، أمام آلة تغليف الورق، أرى الورقة غير المغلفة بإحكام أمامي، وأرى تلك البقعة الصغيرة من الدم على الجزء الخلفي منها.

هيا يا شباب، أخرجوا كومة الرسائل هذه، حان موعد ختم الملك لها.

Visual Watermark

أفتح عيناي، وأشعر كما لو أن روحي كانت مسلوبة ثم عاودتني، والشيء الوحيد، الذي فكرت فيه وأنا أقلب الورقة بين يدي: عليها ختم الملك، تلك الورقة خرجت من قصر الملك، لكن السؤال، الذي ظل ينقر في عقلي، كم شخصًا أصيب بسببها؟

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

Visual Watermark

عن نفيسة، اللي بتنط تنط

ركبنا عائدين إلى المديرية بمجرد أن قدمت تقريري لمصطفى العسّال، كان التوتر ينقر فوق ظهري، ويركض أسفل جلدي فيصيبني بالقشعريرة، لقد اكتشفت شيئًا كبيرًا وأفهم الآن، لماذا كان القصر قلقًا من اكتشاف سر الورقة، لقد أخطأوا في إرسالها، كان من المقرر أن تُتلف وتستبدل بأخرى مغلفة بشكل صحيح، وهو ما حدث بالفعل، لكن شخصًا ما أخطأ وأتلف الورقة السليمة وأرسل المصابة وورطني أنا في هذا الوضع المقرف.

لقد كان معتز مصابًا لفترات طويلة من حياته بالذهان، وتعاطى بشكل مستمر أنواعًا من المخدرات والمهلوسات، التي سببت له بدورها ضلالات وهلاوس جعلته يشك في جميع الأشخاص من حوله، والديه، زوجته، خدمه وحتى طفله الميت، وعملت تلك الورقة المصابة على زيادة حالته سوء.

أودع مصطفى الورقة في قسم الأدلة بالغة الخطورة، ما زال أمامنا طريق طويل لإتلافها، في البداية يجب أن نجد معتز ولنجد معتز يجب أن نعرف عن حياته وأماكنه المفضلة، لكن هذا الدور يتخطى مهامي، سيتولى مصطفى التقصي عن حياة معتز من والديه المسنين، اللذان يعيشان في مزرعتهما في بني سويف، لقد ظنوا بالفعل أن هذا سيكون المكان الأول، الذي سيقصده معتز بعد هربه، لكن أمالهم خابت، وكما اعتاد والدي أن يقول، لا يمكن توقع ما يفكر فيه عقل وحش، فهو أيضًا مرتبط بعقل المرؤ، وبرغباته وأسراره وكلها أشياء يصعب الوصول إليه، ورغم ذلك احتفظ مجلس العموم بقوة خاصة لحماية الزوجين في حال ظهور ابنهما.

عدت أخيرًا لمنزلي بعد أسبوع شاق ومتعب، اليوم هو الخميس، مما يعني أنني سأتمكن من الغرق في النوم وتناول السكريات وتحسين حالتي العقلية؛ لأنني أعرف أني بحاجة لكامل طاقتي وتركيزي لإنهاء هذا العمل المعلق.

أصبحت أسكن في أحد أحياء عين شمس، بعيدًا عن منزل العائلة، فالأوضاع في المنزل باتت كئيبة وأكثر من احتمالي، منذ أخبرتهن بقرار تكليفي، فارتأيت أن أبتعد عن الجميع لفترة من الوقت، حتى نتقبل جميعنا حقيقة الوضع الجديد.

منزلي الجديد، هو شقة صغيرة في عمارة قديمة مكونة من ثلاثة طوابق، تملكها سيدة عجوز قليلة الكلام، قليلة الحركة، وفي بعض الأحيان ستظن أنها ميتة، ولن ترى وجهها عادةً إلا في أيام دفع الأجار، الذي اتضح أنه رخيص لحسن الحظ.

يقطن المنزل في شارع جانبي، وهو أحد المنازل القديمة في الحي، في الماضي، قبل خمسين سنة، كان تحفة فنية، على حد قول مالكته وبعض الجيران العجائز، بجواره فرن عيش، آخذ منه خمسة أرغفة في الأسبوع، وهذه معجزة بالنسبة لحالتي.

أغلب سكان الحي من العجزة، وأغلبهم لم يمتلكوا أطفالًا، مثل مالكة المنزل، فعندما تموت سيصبح هذا العقار ملكًا للدولة، باعتبار أن ليس لديها ورثة؛ لهذا غادر أغلب القاطنين فيه مخافة أن يحوله مجلس العموم لأي شيء آخر، مدرسة، وقف، أو حتى هدمه، فالجميع يعرف أن هذا المنزل بحاجة للإصلاح والترميم.

أعيش في الشقة الوحيدة في الطابق السفلي؛ لأنني لا أثق بأي شكل في مصعد العمارة المتهالك، ولن أخاطر أيضًا، بإنشاء أي تفاعلات اجتماعية من أي نوع مع السكان في الشقة المقابلة لي.

وصلت إلى مدخل العمارة مع غروب الشمس، وأمام بابي وعلى ضوء المصباح الوحيد المصفر في سقف المدخل، رأيت قطة برتقالية صغيرة تموء عند عتبة بابي، لم أكن شخصًا كارهًا للقطط، ولم أكن من محبيها أيضًا؛ لذلك وجود قطة مصابة أمام باب شقتي هو شيء يعكر مزاجي.

نظرت في الأرجاء، ربما تكون تلك قطة منزل تخلت عائلتها عنها، أو ربما قطة أحد الجيران سقطت من الأعلى.

Visual Watermark

وضعت القطة المصابة في صندوق كرتوني كان ملقى بجوار العمارة، وصعدت بها على مضض للطوابق الاثنين فوقي، لكن لا أحد من الجيران تعرف على هذه القطة، وهكذا عدت مصابًا بالانزعاج.

وضعت الصندوق على الطاولة الصغيرة في الصالة، وبقيت أحدق له، كانت القطة الصغيرة ترتجف غير قادرة على المواء، في وضع أفضل كنت سأذهب بها إلى طبيب بيطري، لكن الليل قد حل ولن تكون هناك مراكز لمساعدة الحيوانات متاحة الآن، سأضطر لمساعدة هذه القطة بنفسي.

علقت معطفي على حاملة المعاطف الخشبية جوار الباب، التي اشتريتها من سوق المستعمل، وتخليت عن قفازاتي فوق خزانة الأحذية الصغيرة بجانبها، ثم توجهت إلى المطبخ في الركن البعيد الأيمن من الصالة، تصل إليه عبر ممر ضيق قصير، يحوي دورة المياه والمطبخ، تشغل الصالة الحيز الأكبر من المنزل، وضعت بها أريكة وكرسيين، في شيء أشبه بغرفة الاستقبال، وطاولة طعام بثلاثة كراسي، اشتريتها من سوق المستعمل هي الأخرى، ثم هناك مذياع صغير، وضعته على خزانة الأحذية جوار الباب؛ وللتقليل من مساحة الصالة، وضعت ستارة مقلمة، بين الصالة والردهة حيث المطبخ ودورة المياه، هناك ردهة أخرى نحو اليسار تُفضي إلى غرفتي نوم.

دخلت إلى المطبخ، وأخرجت قدرًا ووضعت به بعض الماء الدافئ والصابون، عندما كنت طفلًا صغيرًا، اعتاد أبي إحضار العديد من القطط الصغيرة المنقذة، التي يصادفها في رحلاته، إلى المنزل، حيث كنا نحممها ونطعمها، ثم نعرضها للتبني؛ لذا أظنني أعرف شيئًا أو شيئين حول القطط الصغيرة.

وضعت القطة برفق في الماء الدافئ فأصدرت مواء خافتًا، ونظرت لي بعينيها الكبيرتين بالنسبة لحجم رأسها، وبدت لي سعيدة بشعور الدفء والنظافة.

جففتها جيدًا بعدما أنهيت تحميمها، ثم عقمت الجرح في ساقها اليسرى، قبل أن أربط ساقها جيدًا، من الواضح أن ساقها كانت مكسورة من قبل، إنها عرجاء.

سأجهز لها مكانًا للنوم هنا الليلة، وسأبحث لها من الغد عن متبني.

-بعتذر يا قطة، معنديش أكل مناسب ليك، استحملي بقى الأكل دلوقتي وبكرة هَوديك مكان أكله نضيف.

قلت وأنا أضع أمامها طبقًا به ماء، وطبقًا آخر قطعت لها فيه صدر الدجاجة الوحيد المتبقي لدي في الثلاجة، بعدما سلقته لها.

أنا بحاجة لشراء طعام يصلح لاستهلاك البشر، فكرت وأنا أرى ثلاجتي الفارغة.

كانت الساعة تشير للعاشرة مساء عندما بدأت أستعد للنوم، وضعت وسادتي على الأريكة في الصالة مع غطاء، ما زلت غير معتاد على النوم بمفردي في المنزل الجديد، رغم أني نمت لأشهر بمفردي في العزل في مستشفى الأمراض النفسية، ربما لأن المستشفى تبقى مستيقظة طوال الليل فلا تشعر بالوحشة، لكني هنا، الشخص الوحيد، الذي يبقى مستيقظًا في العمارة، فجميع جيراني من كبار السن، الذين ينامون في وقت مبكر جدًا.

في أوقات كهذه، عندما يبدو الليل كئيبًا، تغمرني التساؤلات، كيف ستبدو الحياة لو كان مسموحًا لنا أن نعيش في الليل بشكل طبيعي، كيف ستكون مساءات الصيف، وكيف ستبدو مساءات الشتاء؟ هل سيبقى الأطفال في الشارع يلعبون دون خوف؟ هل كنت سأشعر بالأُنس على صوت البشر من حولي مستيقظين يتسامرون؟

أشغل المذياع القديم، الذي اشتريته من سوق المستعمل هو الآخر، فيصدح صوت متكرر لتحذير حظر التجوال، الذي يُذاع بدأب، كل ليلة، عبر جميع المحطات الإذاعية.

«يبدأ حظر التجوال في الساعة الخامسة عصرًا بتوقيت القاهرة، حظر التجوال مفروض لحمايتكم.

Visual Watermark

أغلق باب شقتك ونوافذك، وأي منفذ يمكنك أن تُطل منه على الليل.

إذا كنت مصابًا أو ظهرت أعراض الإصابة على أحد معارفك يُرجى الاتصال بنا على الخط الساخن لمديرية حراس الليل ٠٠١، أمانتك حماية لك ولمجتمعك...»

يُكرر صوت المسجل نفسه طوال الليل، فأتمكن من النوم.

أراقب القطة بينما يسرق عينيها النوم، هي الأخرى، في سريرها الجديد، الذي صنعته لها من كرتونة فارغة كانت لدي وقماشة قطعتها من رداء قديم، يغشاها الأمان، الذي أتساءل إن كنت سأهنئ به يومًا، ثم تغفو عيناي أسفل الغطاء الدافئ، ويتسلل شعور مسالم غريب إلى قلبي.

منذ عرفت مصطفى العسّال ووجوده أمامي في الصباح الباكر لا يعني بشكل عام، أي شيء جميل، عدا صباح اليوم، الذي أخبرني فيه أنه سيتزوج من نجلاء الدمرداش، لا تسئ فهمي، لمصطفى الكثير من المقومات الإيجابية، لكن من الصعب العيش معه، فعادةً ما يكون آخر شخص يغادر المديرية، كثير التفكير، كثير الأرق، ودومًا ستشعر بمجرد أن تراه أنه شايل طاجن سته، لكنه طيب، وابن حلال، ولديه روح دعابة لطيفة وشقة ثلاث مطارح، كل ذلك سأحكيه لك في الوقت المناسب، لكن قبل أن نمر بكل تلك الصباحات التالية كان يجب أن نمر بصباح هذا اليوم أولًا، حيث فُزعت في صباح يوم الجمعة، في التاسعة صباحًا على صوت طرق قوي على باب منزلي، اضطرني للقفز من الأريكة لفتح الباب سريعًا قبل أن يسقط الباب المتهالك من شدة الطرق.

-مين المجنون اللي بيصحي الناس كده على وش الصبح؟

صرخت منزعجًا وأنا أفتح الباب، ومن الواضح أن هذا لم يجعل مصطفى يشعر بالذنب أو حفز لديه حتى رغبة في الاعتذار، بدلًا من ذلك عبر إلى الداخل حيث جلس براحة في كرسي الطاولة الخشبي، قائلًا بعملية:

-لاقينا معتز، اجهز بسرعة.

لم يكن هذا هو الصباح، الذي توقعت أن أحظى به في يوم إجازتي الوحيد، لكن ما العمل؟ فقد ظهرت آثار معتز بشكل أكبر في أسيوط، حيث اكتشفنا أنه قتل خمسة نساء في أسبوع اختفائه، وعلى طول مساره من القاهرة إلى أسيوط، ثلاثة منهن كن في أسيوط.

كان معتز نهمًا للدم أكثر مما توقعنا، إنه يتجاوز الشهر الآن منذ أُصيب بسبب الورقة، وقريبًا سيفقد آخر ملامحه الآدمية وسيتحول إلى وحش من الورق والكلمات، ويجب أن «أنقذه» قبل أن نضطر لقتله.

كانت السماء قد أمطرت ليلة أمس، فحملت مظلتي احتياطيًا، وارتديت ملابسًا أكثر دفئًا، ولم أنسى أن أحمل معي نفيسة، القطة، التي أنقذتها بالأمس، أسميتها نفيسة؛ لأنها بدت لي كقطة يليق بها اسم نفيسة، سأتركها في مستوصف بيطري على الطريق؛ ليعتنوا بها خلال فترة غيابي، فلا أريدها أن تموت جوعًا في منزلي الخاوي.

ظل مصطفى متضايقًا طوال الطريق، حيث يعاني من حساسية من الحيوانات ذات الفراء، وحشر نفسه في أبعد نقطة عني وعن نفيسة، ولم يعد إلى طبيعته الهادئة إلا بعدما أودعت نفيسة وصندوقها في يد البيطري، ثم انطلقنا دون توقف في سيارة الموريس نحو أسيوط، من المتوقع أن نصل تقريبًا بعد صلاة العصر، إن لم تعترضنا أية مشكلة خلال الطريق، وجعلتني الرحلة الطويلة أتذكر أطلال المرة الأخيرة، التي زُرت فيها أسيوط، عندما كان والدي على قيد الحياة، زرناها في العيد، ربما كنت في التاسعة أو الثامنة وقتها، لا أذكر الكثير عنها، لكني أتذكر أني أحببتها، ثم خرجنا منها إلى قنا حيث أمضينا أسبوعًا لدى أقارب والدي من أعمامه وعماته، وتعرفت إلى العائلة الكبيرة، تقدرنا عائلتنا الكبيرة كثيرًا، وتتفاخر في البلد بإنجازات والدي وجدي، وما يقدمونه من جهد لجعل مصر آمنة من الوحوش.

Visual Watermark

من بين عاصفة ذكرياتي المشوشة، انبثقت ذكرى وحيدة واضحة في عقلي، واضحة كصوت صفعة، لقد تساءلت، لقد تساءلت يومها إن كانوا سيفخرون بي ذات يوم كوالدي!

عندما دخلنا حيز المنيا، غامت السماء، وانقلب النهار ليلًا، وعندما اقتربنا من أسيوط، فُتحت أبواب السماء وانهال علينا مطر كثيف، عانت أسفله مساحات السيارة من عمل مرير لدرء الماء عن الزجاج الأمامي، وتساءلت ومصطفى إن كنا سنتمكن من الوصول اليوم إلى أسيوط، وكنت لأقترح أن نتوقف ونبيت في أي لوكاندة قريبة، لكن لا يوجد لدى مصطفى راحة قبل إنهاء العمل، وحتى أن ارتحنا في لوكاندة فإنه لن ينام حتى يأتي الصباح وننطلق إلى أسيوط ونمسك بمعتز؛ لذلك أنقذت عقلي من الكثير من القلق، وصمتت، كما أني كنت بحاجة للعودة إلى المنزل بأسرع وقت ممكن؛ ولأعود بسرعة يجب أن ننهي هذا العمل بأسرع ما نستطيع.

وصلنا إلى نقطة تجمع الفريق بعد صلاة المغرب، كان الليل حالكًا، والسماء لا ينضب رعدها، وجميعنا غير متأكدين إن كان هذا هو الوقت الأمثل لمداهمة معتز، بما أنه الليل، فمعتز يستطيع التحرك بحرية أكثر منا جميعًا، لقد كنا في مملكته، ولا أحد منا محصن تجاهه، باستثنائي بالطبع، باعتباري مفتش الليل الوحيد في المكان، لكن هذا لا يعني، بالطبع، انني يجب أن أُقتل.

اجتمع الفريق في شقة فارغة، في المنزل المقابل للعمارة السكنية حيث يختبئ مصطفى، على حسب المعلومات، التي وصلتنا من الإخبارية، كانت غرفة العمليات تتكون من سبعة أفراد، وبقية الفريق كان للتأمين وتنفيذ المهام الموكلة إليه.

هناك دزينة من أفراد حرس الليل، المنتشرين حول المكان بهيئة مدنية، ينتظرون إشارة من قائد الفريق، أستاذ حمدي، وهو رجل كبير، كان قد تواجه مع الليل مرات كثيرة في شبابه، عندما عمل حارس ليل، وترك الليل له بدوره ندبات عديدة، بالإضافة لوجه متجهم ومزاج غير رائق في أغلب الأحيان.

بقيت في طرف الغرفة، على كرسي غير مريح، أطالع رجال غرفة العمليات السبعة، وهم يتناقشون بهمة وتركيز في كل الطرق، التي تؤدي إلى موتي، وتمنيت لو أخذوا رأيي على الأقل.

بعد ساعة من المداولات، أخبرني معتز أننا سنقتحم المنزل خلال دقائق، فأفضل خطة هي مفاجأته ومحاصرته، قبل أن يهرب ثانية، وحاول رش بعض التفاؤل والأمل على حديثه، وكأنه يغلفه بطبقه سحرية من ببيدي بوبدي بو، وطمأنني أني سأكون محاطًا بفرقة من حراس الليل الأكفاء، لكني هذا لا يمنع بالطبع أن أحصل على مسدس محشو، كزيادة تأمين، ولا شيء من هذا ساعدني في الحصول على الطمأنينة المزعومة، التي يحدثني الجميع عنها.

توقف المطر الغزير، وبقيت منه زخات خفيفة، بعد أذان العشاء، جاء مصطفى وأخبرني أن أرتدي خوذة وسترة واقية، ولم يكن أمامي سبيل آخر سوى تنفيذ الأوامر.

كان الليل حالكًا، والقمر غير المكتمل، ذهب وجاء خلف الغيوم، تحركت ومصطفى في بداية المجموعة، نحو بوابة العقار، وتفرق البقية لتأمين مخرج الطوارئ، واتخذ القناصة مواقعهم للتصويب، ووقف أستاذ حمدي مع منظاره يراقبنا كعيني بومة من نافذة غرفة العمليات.

تخطاني مصطفى إلى داخل العمارة؛ لتأمين طريق الدخول، والتفت أنا لمرة أخيرة نحو الحي الساكن؛ لأودعه وأنا غير متأكد من قدرتي على الخروج من هنا.

اللون البرتقالي المهزوز، يتسرب من مصباح الشارع جواري، ويضيء البقعة الصغيرة حولي، أقف أمام البوابة، وأنظر إلى الشارع الطويل أمامي، يتلحف بالنخيل الطويل على جانبيه، ويغرق في الظلام السحيق، يرتعش ظهري من البرد، وأرى الليل يركض نحوي من بعيد، خارجًا إلي من العتمة.

-قاسم، إنت واقف عندك بتعمل إيه؟

أسمع صوت مصطفى المنخفض في جهاز الإرسال اللاسلكي، فأخبره أني قادم، وأغلق البوابة خلفي،

Visual Watermark

وأحبسني، بيداي، مع مصطفى، رفقة وحش هائج.

صعدت الدرجات بحذر، حتى التحقت بمصطفى المختبئ أسفل درجات الطابق الثالث.

-هنعمل إيه دلوقتي؟

أسأل مصطفى هامسًا، فيخرج ورقة مألوفة من جيب سترته ويقدمها لي بحذر.

-دي الورقة المصابة، إوعى تضيعها.

هززت رأسي، وأنا أحشر الورقة المطوية في جيب معطفي الداخلي، وأشعر بحبات عرق باردة تنزلق على ظهري، فأعدل الخوذة الواسعة فوق رأسي، وأتأكد ثانية من مسدسي.

توقف كلانا أمام باب الشقة المنشودة، أخبرني مصطفى أن أمسك بمسدسه ريثما يفتح باب الشقة بأدواته الخاصة، فحملت مسدسه وأملت أن ينسى كل ما يعرفه عن فتح الأقفال، ونظرت في الأرجاء، بحثًا عن أي مهرب، كنافذة تطل على الشارع، أو جار يهبط من الأعلى، لكن لا شيء يدل على النجاة في هذه العمارة المسمطة، الهادئة زيادة عن اللازم.

سمعت صوت فتح الباب، فازدرت لعابي وأنا ألتفت نحو القفل، آملًا أن ما سمعته كان هلوسة، لكن مصطفى كان قد فتح الباب جزئيًا بالفعل، ويمد يده لاستعادة مسدسه، فأعطيته له.

-إحنا هندخل دلوقتي، استعد ومتعملش دوشة.

أومأت، وأنا أشك أني أستوعب أيًا مما قاله.

فتح مصطفى الباب بحذر تام، الشقة غارقة في العتمة، لا يضيء لنا الطريق، سوى مصباح السلم، لم أستطع أن أمنع نفسي عن الارتجاف، وحاولت أن أحكم قبضتي جيدًا فوق مسدسي.

وقف مصطفى قليلًا، ريثما اعتادت عينيه على الظلام، لكنه كان يصغي جيدًا للصمت، ووقفت أنا بالقرب منه، أنظر إلى باب الشقة المغلق وآمل لو كانت لي من الشجاعة ما يكفي للهرب من خلاله.

-فيه زرار كهربا جمب الباب، لما أديك الإشارة شغله.

همس مصطفى، وكنت سأومئ برأسي فلم أقوى على الكلام، لكني همست:

-حاضر.

وبقينا واقفين في هذا التيه الشاسع، غير قادرين على رؤية شيء أو سماع شيء، وتساءلنا إن كانت الإخبارية، التي وصلتنا صحيحة من الأساس، ربما نحن نضيع وقتنا وحسب، ومعتز في الخارج يلتهم العديد من النساء البريئات.

-شكله مش موجود.

همست لمصطفى، وسمعنا صوتًا قادمًا من هذا الفراغ، خلفنا، ففقدت أنفاسي للحظة، بينما صرخ مصطفى من أعماقه:

-النور يا قاسم، النور.

اندفعت بجسدي نحو الزر جوار الباب، حيث أشار مصطفى، لكن العملية كانت صعبة مع صوت الزئير المتعالي، وطلقات الرصاص والظلام الحالك وكفاي المتعرقان داخل حافظتهما الجلدية، تحسست بأطراف أصابعي الجدار حتى وجدت صفًا من الأزرار، ثم ضغطت زرًا تلو الآخر دون جدوى، وانطلقت من خلفي رصاصتين أخرتين، وصراخ مصطفى.

-النور يا قاسم.

-بحاول.

صرخت أنا الآخر، وجربت زرين آخرين حتى أضاءت الصالة.

Visual Watermark

سمعت أصواتًا مزمجرة خلفي، ولم أجرؤ أن ألتفت، إلا عندما أطلق مصطفى رصاصته الرابعة.

بمجرد أن التفت نحو المشهد، ركض مصطفى نحو إحدى الغرف، كان معتز بطيء الحركة، فما زال في طور التحول وعقله الوحشي غير مكتمل كليًا، فاستغليت الفرصة أنا الآخر، وركضت في الاتجاه المعاكس إلى أقرب غرفة لي، وأغلقت الباب من خلفي جيدًا.

أعطيت نفسي فرصة لاستيعاب ما يحدث حولي، والعودة لعقلي، كل شيء هادئ في الخارج إلا من صوت حركة معتز، فأغمضت عيني، وحاولت التركيز، يجب أن أهدأ، نجاتي ونجاة مصطفى تعتمد علي فقط، سأمسك بالورقة، سأمسك بها دون عازل، ويجب أن أكون سريعًا، ثم سأركض نحو معتز، وسأمسك به، وأعكس التأثير، وسينجو ثلاثتنا، وسأعود إلى المنزل، وأعود إلى أريكتي المريحة ولنفيسة.

أخرجت الورقة المطوية من جيب معطفي، وفتحتها، ثم أغمضت عيناي وسحبت نفسًا عميقًا، وشعرت بعقلي يسترخي، قبل أن أخلع قفازاتي وأزيل العازل البلاستيكي عن الورقة.

أخبرتني عمتي ذات مرة حول أنواع الوحوش، التي قابلتها في رحلتها في أخوية الرجال الأموات، وكيف أن الوباء يمكنه أن يغير من شكل الشخص، فهناك بشر تتحدب ظهورهم وتخرج منها أجنحة ضخمة وثقيلة، إنها لا تحملهم إلى السماء، ولا تجعل بقائهم على الأرض سهلًا أيضًا، عادة ما تنبع تلك الوحوش من البشر المحبطين، لكن هناك أيضًا وحوش آخرون، أكثر ظلامًا، كانوا في أعماقهم، دومًا، يعرفون أن مصيرهم أن يكونوا أشرارًا، بعضهم حارب تلك الرغبة الشريرة بداخله، وبعضهم تماهى معها، لكن بالتأكيد كلاهما كانا سعيدين؛ لأن إصابتهما بالوباء خففت عنهما وطأة العار وثقل التبرير الكاذب للمجتمع، يمكنك أن تعرف هذا النوع من الوحوش من الظل الدخاني، الذي يصاحبه حيثما يذهب، ظل شبحي مهول، كدخان نار منطفئة.

-معتز.

اندفعت من الغرفة صارخًا، كان مصطفى يختبئ أسفل طاولة الطعام، ومعتز يحاول سحبه أو سحق قدمه بمخالبه البنية الضخمة، لكنه الآن ينظر لي، بوجهه المشوه، مع نصف رأس متضخمة سوداء تمامًا، ونصف رأس بشرية، رغم أن لا شيء في هيئته، من أعلى لأسفل، ما يزال بشريًا.

فتح معتز فمه المشقوق الضخم، ذي الأسنان المتشابكة كسمكة مفترسة، شعرت به يرغب في الحديث، لكنه فقد صوته، وربما نسي أيضًا كيف يصيغ الكلمات، الكلمات التي حولته لما هو عليه الآن.

لم أفكر كثيرًا، واندفعت نحو معتز محاولًا لمسه وقبضت بيدي اليسرى على الورقة، لكن أسرع معتز بتقييد جزعي بكفه الضخمة، التي امتدت منها مخالب عملاقة، واسترجعت ذكرى البنسيون، الجثة، الدماء، الجمجمة المهشمة، وانهياري المخزي، ولمحات أخرى عن أشياء مزعجة، حاولت ألا أركز معها لئلا تتضح تفاصيلها أكثر، وسقطت عني الخوذة على أرضية الصالة.

لم أستطع التنفس عندما ضرب معتز بجسدي، الذي أصبح كريشة أمام هيئته الوحشية الضخمة، عرض الحائط، مع ألم شنيع انتشر على طول ظهري.

حاولت التنفس، لكن كل ما حصلت عليه كان لهاثًا صعبًا كحيوان يحتضر، ذكرت نفسي أنني يجب أن أنفذ مهمتي؛ لكي أنجو، فأمسكت بكف معتز، أو ما بقي منه، القابضة على جزعي، وأغمضت عيناي محاولًا سحب أي شيء منه لإعادته للورقة، لكني لم أستطع، ربما؛ لأني لم أجرب استخدام هذه المهارة من قبل؟ حاولت التركيز والمحاولة أكثر، لكن معتز ضربني باتجاه الحائط ثانية، واستطعت سماع مصطفى يحاول الخروج من أسفل الطاولة والبحث عن مسدسه.

ركزت بشكل أكبر، وحاولت تجاهل إحساسي بنقص بالألم، بينما ضربني معتز ثانيةً، وأخشى أن هناك شيء ما مكسور.

Visual Watermark

لكن هناك أيضًا وحوش آخرون، أكثر ظلامًا، كانوا في أعماقهم، دومًا، يعرفون أن مصيرهم أن يكونوا أشرارًا، بعضهم حارب تلك الرغبة الشريرة بداخله، وبعضهم تماهى معها، وبالتأكيد كلاهما كانا سعيدين؛ لأن إصابتهما بالوباء خففت عنهما وطأة العار وثقل التبرير الكاذب للمجتمع، يمكنك أن تعرف هذا النوع من الوحوش من الظل الدخاني، الذي يصاحبه حيثما يذهب، ظل شبحي مهول، كدخان نار منطفئة.

لا يمكن إنقاذ تلك الوحوش، إن الورقة تستولي عليهم تمامًا، ويختفي من داخلهم أي أثر إنساني، يمكننا أن ترشدهم من خلاله للخروج؛ لذلك، إنهم نوع الوحوش الوحيد، الذي نقتله، تلك المساعدة الوحيدة، التي نستطيع تقديمها لهم ولعائلاتهم.

تكررت كلمات عمتي مرة أخرى في عقلي، وسقطت الورقة من كفي.

أفتح عيناي وأنظر.

أجرؤ أن أنظر في عيني معتز، عينه الوحشية وعينه البشرية، لكن يداي لا تعملان عليه، لا يمكنني إخراجه من الظلام، ثم أنظر لعينيه البشرية، وأشعر أنني خذلته، فلن نخرج ثلاثتنا أحياء، ثم انظر لعينه الوحشية وأعرف أن لا مفر من واجبي، ثم وفي حركة سريعة، أخرجت مسدسي من جيب معطفي، حاول معتز اعتراضي، لكني كنت قد أطلقت على رأسه رصاصتين، وسقط كلانا أرضًا.

انفجرت دماء كثيرة من رأس معتز، وانسابت على الأرضية، ولطختني، لكني لم أفكر في شيء آخر سوى في الهواء، الذي اندفع إلى رئتي وعقلي، تألمت وضغطت على صدري وظهري في محاولة لتسكين الألم، واستلقيت على الأرضية، ثم عندما بدأت أدرك ما حدث، كانت هناك دماء تلطخ بنطالي ويداي، نظرت إليهما ساهمًا لكني لم أنهار، وتبادلت نظرة مع مصطفى، الجالس أرضًا في الطرف الآخر من الصالة، وكلانا علم أن الأمر قد انتهى.

لم أرغب في النظر إلى دماغ معتز المتفجرة، لكني فعلت، شعرت بدافع للنظر إلى ما اقترفت، فيجب على الأقل أن يودعه شخص ما، فوالديه بعيدين جدًا، ولن يُسمح لهما برؤيته في هذه الحالة، لن يودعه أحد، إن لم أودعه أنا، سيرحل فحسب، ويكفن في مواد عازلة لمنع انتشار العدوى.

يا ترى، خطأ من هذه النهاية؟ أنا أم هو؟

بعدما غسلت يداي في حوض المطبخ، غادرت الشقة وأنا أعرج، وهبطت درجات السلم، الذي اختفى السكون، الذي غلفه منذ دقائق مضت، تكاثر عدد حرس الليل، العابرين من حولي على السلم، محاولين التخلص من الفوضى، التي خلفناها وراءنا، وما تبقى من معتز، ربما لتوديعه بشكل لائق.

نظر الجميع لي بشفقة وعطف، لكني لم أكن واثقًا مما أحتاجه في تلك اللحظة حقًا، أردت أن أتوقف وحسب، وأن أبقى في مكاني حتى أموت، كنت أحترق من الداخل، كما لو كنت مصابًا بخطورة.

-قاسم.

صوت أنثوي تردد في أذني، بدا لي قريبًا للغاية مني، فتلفت حولي مستغربًا، لا توجد أي سيدة هنا، من أين أتى الصوت؟

-قاسم.

تكرر الصوت أكثر وضوحًا بقليل، وكأنه يرشدني لمصدره، رفعت رأسي، ووقفت على طرف حذائي؛ لأحصل على نظرة فاحصة للطوابق العليا، رغم أن الأمر زاد من ألم أضلاعي، لكني رأيت شيئًا أشبه بطيف، لامرأة تركض بفستان أبيض، لم أتبين وجهها، وكل ما رأيته هو شعرها الأسود الطويل، لماذا كانت تركض؟ ولأين؟

-قاسم.

Visual Watermark

جفلت عندما سمعت صوتًا آخر من خلفي، وتمسكت بالدرابزين لئلا أسقط، والتفت مشدوهًا نحو الشخص خلفي، وزال عني الفزع عندما أدركت أنه مصطفى وليس شبحًا.

-إنت كويس؟

-إيوة.

نظر لي نظرة فاحصة، ثم قال:

-شكلك تعبان، ريح شوية عشان هنرجع بعد الفجر.

أومأت، ونظرت مرة أخرى إلى الطابق العلوي، وشعرت أن شخصًا ما ينتظرني هناك، رغم أني لم أرى أي أحد.

لم أستطع النوم قبل أن أركب في السيارة في طريق العودة، ورغم أني غسلت يدي ووجهي من الدماء المتخثرة، إلا أن الرائحة لم تختفي من أنفي وذاكرتي، وعانيت من نوم متقطع، شعرت فيه أنني أغرق في دوامة من الدم، والوحوش وشبح امرأة ميتة، ولا أعرف حتى كيف قرر عقلي أنه شبح امرأة ميتة، وليست مجرد هلوسة معتادة؟

أعادتنا سيارة تابعة للحرس الليلي إلى القاهرة، وذهبت رفقة مصطفى إلى المستشفى التابعة للمديرية للفحص، عانى مصطفى من رضوض متفرقة، وإصابة في حاجبه قُطبت بعشرة غرز، بينما أصبت أنا بكدمات كبيرة على طول ظهري وأضلاعي، من حسن حظي أن لا شيء مكسور، أعطاني الطبيب مسكنًا ومراهم للألم، وأخبرني أن النوم سيكون صعبا لبعض الوقت، الاستحمام بماء بارد سيساعد في تخفيف الألم.

تركت مصطفى في المستشفى وغادرت؛ فقد كنت بحاجة للاختلاء بنفسي، والحصول على نفيسة من عيادة البيطري، والتي بدت لي في حال أفضل من حالي، انطلق السائق نحو المديرية، وعدت أنا بمفردي إلى منزلي.

كان الهواء باردًا أكثر من المعتاد، وكان الشارع هادئًا، جلست على سلم العقار، ووضعت بجواري صندوق نفيسة، التي أخرجت رأسها وطالعتني بعينيها الكبيرتين وسط رأسها الصغير.

احمرت السماء، والغروب أوشك على احتلالها، طالعت الأفق البديع، ولم أكن أعرف أين أذهب، ففكرة العودة للمنزل، لأربعة جدران خاوية ومغلقة، أشعرتني باختناق مرير، رغبت في البقاء في مكاني كما التمثال، لا أتنفس ولا أتحرك، لا أموت ولا أحيا.

أصدرت نفيسة صوت مواء، فنظرت إليها، بدت وكأنها تسألني ماذا نفعل الآن؟

-إنتِ كمان مش لاقية مكان تروحيله؟

حملتها بين يداي ونظرت إليها بتمعن، ثم قلت:

-تيجي نونس بعض؟

Visual Watermark

زائر منتصف الليل

عندما عدت للمديرية، فوجئت بحفل تنصيب خاص لي، وأني قد رُقيت إلى مفتش ليل رسميًا، أعطوني وشاح تكريم، وشهادة تقدير، وأخبروني أن أكرر من خلفهم قسم المهنة، قسمًا لم أقتنع بأني أستحقه، ولم أصدق أي كلمة منه، لكني مضطر لتحمل ثقله.

أنهيت الإجراءات الروتينية للانتقال لقسم مفتشي الليل، وودعت يوسف والعم عطوان، وودعني محمد وداعًا حارًا، بابتسامته المعهودة، وتمنى لي أن أصبح بطلًا كبيرًا في المستقبل.

كنت محتارًا في إخبار والدتي بأمر تعييني، فما زالت في مرحلة تقبل أمر التكليف، وأريدها أن تبقى معتقدة أني ما زلت في مرحلة التدريب في الأرشيف المترب.

صباح يوم الاثنين الماضي، اتصلت والدتي بمقر المديرية، فلم أعطها رقم منزلي بعد، وأخبرتني أنها وجدت لي عروسة وسنذهب لزيارة عائلتها يوم الخميس، كانت مكالمة مليئة بالكثير من المفاجآت، ومن الواضح بالطبع، أنني ذهبت مرغمًا، ونظرت لنصف الكوب المملوء، فلا توجد امرأة سترضى بالزواج بي إن علمت تاريخي المرضي، وحقيقة أني قتلت رجلًا، أو ما بقي منه، لكن ما بقي من كوبي سُكب عندما قابلت العروس المنتظرة، فريدة هانم الصوّاف، الابنة الوحيدة لعائلة الصوّاف، ومراد جميع الشبان النبلاء.

لماذا قد توافق عائلتها على اللقاء بي؟ أنا، الذي لا يملك شيئًا سوى مجد مكسور؟

طرحت والدتي رغبتها أمامهم، بتصاهر العائلتين، صراحة، ولم يبدو على والدي فريدة أية اعتراض، بل ورحبوا بجلوسنا سوية للتعارف، بينما تتناقش العائلتان.

كان من الغريب أن أجلس مع فريدة، أو مع عروس في العموم، فلم أتوقع أن يأتي يوم كهذا، كما أن فريدة رأتني في موقف محرج وصعب، عندما انهرت أمام عقلي، لذلك شعرت قليلًا بالحرج، لكنها بدت طبيعية تمامًا، ولم تتطرق للأمر على الإطلاق.

في نهاية الجلسة، اتفقت العائلتان على أخذ الرد بعد يومين، ولم أضع الأمر طويلًا في عقلي، رغم أني شعرت بالتوتر في بعض الأحيان، وبعد يومين تلقينا ردًا، وافقت عائلة الصوّاف على طلب المصاهرة، وسنعقد الخطوبة في الربيع؛ لأنه الفصل المفضل لفريدة، ثم سنناقش أمور المهر والشبكة في جلسة أخرى، بعد أسبوعين بعد عودة والد فريدة من مهمة عمل.

قبول عائلة الصوّاف طلب ارتباط عائلتينا، كان خبرًا صادمًا بالنسبة لي، ولم أتوقعه ولو بنسبة ضئيلة حتى، لكن عائلتي كانت سعيدة، كما لو كانوا واثقين من حدوث الأمر.

لم أعرف ما يجب أن أفعله بعد هذا الخبر، فحاولت تجاهله والتفت لمتابعة عملي، لأنني كنت أعاني من مشاكل في التأقلم مع العمل المكتبي المعقد، والبروتوكولات الكثيرة، التي تختلف عن عمل الأرشيف البسيط والسلس، وارتأيت أنني يجب أن أمتلك شيئًا أفخر به أمام عائلة زوجتي.

***

بعد مرور فترة:

منذ صدرت أوامر حظر التجوال الليلي عام ١٨٨٢م، ولم تتغير أو تُزال أبدًا، لكنها حصلت على بعض التحسينات بمرور السنوات، وبينما افتقد جيل كامل الليل، وُلد جيل آخر لا يعرف شيئًا عن الليل، والسير في الليل وجلسات السمر.

مع مغيب شمس الرابع عشر من مارس، عدت من يوم عمل ممل وفارغ، امتلأ بالأعمال المكتبية وإنهاء التقارير، لكنه عمل اعتدت عليه الآن، أوصلتني سيارة الحرس إلى منزلي في عين شمس، والحياة ما زالت تمضي رتيبة.

بعد تناول عشاء سريع سقطت في النوم على الأريكة وأنا أشاهد نفيسة تلهو بكرتها المطاطية

Visual Watermark

الجديدة، ازداد حجمها، وأصبحت حركتها أسرع من ذي قبل، ولم يمنعها عرجها عن استكمال حياتها.

عندما وصل إلى حلمي صوت طرق متكرر ولجوح، تقلبت على الكنبة الضيقة، وشعرت بالألم في عمودي الفقري وركبتي، وأظن أن ألم عظامي هو ما أيقظني أكثر مما فعل الصوت الطارق اللجوح، الذي بدأت أدركه أخيرًا.

كانت الصالة غارقة في الظلام عندما رفعت رأسي عن الوسادة، وبذلت جهدًا؛ لأصل إلى مصباحي اليدوي، الذي أشعلته حتى أتمكن من الوصول إلى زر مصباح الصالة جوار باب الشقة، الذي يكاد ينخلع من شدة الطرق، متسائلًا إن كنت سأرتاح من ألام عظامي ذات يوم.

فتحت قفليّ الباب وبدأت أستعيد تركيزي ووعيي شيئًا فشيئًا، وذلك جعلني أتوقف قبل إمساك مقبض الباب، وأستدير لأنظر للساعة فوق المدفأة، إنه منتصف الليل! من قد يتجول في مثل هذا الوقت الخطير في الخارج؟

نظرت إلى الباب خلفي، الذي عادت طرقاته بعدما كانت قد توقفت عندما بدأت في فتح الأقفال.

لا يمكن أن يكون الشخص خلف الباب بشريًا بالتأكيد، إن كان كذلك لكان حراس الليل قد أمسكوا به وسجنوه؛ لخرقه قاعدة حظر التجول، بالتأكيد سيكون مصابًا، ربما يكون قد لمس ورقة واستُحوذ عليه من قبل قصتها.

أعدت غلق الأقفال ثانيةً وتراجعت بعيدًا عن الباب، وعقلي يدوي بالترقب والقلق، كمفتش ليل يجب أن أتحقق من هذا الشخص وأن أتأكد أنه ليس خطيرًا على المجتمع ولن يتسبب في مقتل أحد، لكني بمفردي هنا وليس لدي ما يكفي من الأدوات للمساعدة أو حماية نفسي، ولا يمكنني الاتصال بالدعم دون أن أتأكد أنها حالة خطيرة بالفعل.

إن علم أحد أنني تقاعست ولم أؤدي دوري بشكل كامل سأُعدم مع عائلتي، واحتمال إفلاتي من هذه المشكلة ليس كبيرًا؛ لذا يجب أن أتصرف قبل أن يفتح شخص ما من الجيران بابه ويقتله هذا الشيء.

-قاسم.

توقفت عن الحركة وعن التنفس، أحاول التأكد أن هذا الصوت، الذي أسمعه حقيقي ولست أهلوس.

-قاسم، يا أستاذ قاسم افتح الباب، ده أنا أنطونيو.

أنطونيو؟ أنطونيو چروبي؟ ما الذي قد يفعله هنا الآن؟ لا، بل هل هو حقًا أنطونيو چروبي، الذي أعرفه؟

اقتربت من الباب بحرص، واستندت عليه ووضعت أذني عليه، واستمعت بحرص، قبل أن أسأل بحزم:

-وإيه الدليل إنك أنطونيو؟

تحدث أنطونيو المزعوم بصوت منزعج:

-وإزاي هعرف عنوانك لو مكونتش أنطونيو؟ مش وصلتلك طلبات كتيرة قبل كده؟

-ممكن تعرف عنواني من أي حد، إديني أمارة أقوى.

-زي إيه؟

فكرت قليلًا، يجب أن يكون شيئًا يعرفه أنطونيو فعلًا.

-إيه آخر طلب طلبته من المحل؟

Visual Watermark

-طلبك المعتاد، آيس كريم بالفراولة وفطيرة تفاح صغيرة.

حسنًا هذا صحيح تمامًا، فتحت باب الشقة وأنا أقول:

-إزاي جاتلك الجرأة تخرق حذر التجول يا أنطونيو، ده كتير جدًا، جدتك هتقلق عليك.

ظهر أمامي أنطونيو بقامته القصيرة، يرتدي قبعة تخفي وجهه، غير مهتم بما أقوله، واندفع إلى داخل المنزل دون دعوة، مغلقًا باب الشقة بسرعة، وهو يقول:

-معندناش وقت للكلام ده دلوقتي، لازم تيجي معايا حالًا.

حاول جذبي من ذراعي، لكني نزعت ذراعي منه:

-حيلك حيلك، أنا مش فاهم حاجة، ممكن تقعد وتفهمني؟

أسرع بالجلوس على كرسي الطاولة الوحيد، وكانت نفيسة قد استيقظت وطالعتنا بأعين ناعسة ولم تقوى على المواء.

-طيب، طيب، أديني قعدت، ممكن نمشي بقى؟

-نمشي نروح فين؟

-لقصر الباشا طبعًا.

-قصر الباشا؟ القصر القديم في شارع الحلمية؟

-هو بعينه.

-وإحنا هنروح نعمل إيه هناك السعادي؟

لهث أنطونيو قبل أن يقول بإصرار:

-لازم نروح الليلة، وإلا هنضطر نستنى لحد البدر الجاي.

-أنطونيو، أنا لسه مش فاهم حاجة.

زفر أنطونيو بانزعاج، وشرح على عجل:

-في كل ليلة بدر كامل، فيه نور غريب بيخرج من القصر مع روائح كيميائية مريبة، بس محدش يعرف بالموضوع ده غيري؛ لأن محدش بيخرج بليل.

عقدت حاجباي:

-وأنت عرفت إزاي؟

-مش مهم عرفت إزاي، المهم إنك محتاج تشوفه.

تبرمت:

-أنا مش رايح في حتة، ومش هخرج في وقت حظر التجول، أجل الموضوع للصبح.

نهض أنطونيو في محاولة إقناعي:

-أنتَ مفتش ليل، مش هتتعاقب لو خرجت في وقت حظر التجول، ومن واجبك حماية المواطنين من شر الليل، فكر في الموضوع، لو عرفت السر هتاخد ترقية كبيرة أكبر من والدك وجدك.

انزعجت من إلحاحه الغريب:

-مش عايز ترقية، وبعدين مالك مهووس أوي بالقصر ده؟

-مش وقت أسئلة يا أفندي، هتيجي معايا ولا لا؟

Visual Watermark

-لا.

-لو مروحتش معايا للقصر أنا هبلغ عنك.

تبًا لك يا أنطونيو، لا أدري أي نوع من المهن هذا، الذي تُهدد فيه بالعقاب والإعدام في كل لحظة!

استغرقني الأمر خمس دقائق لأرتدي ملابسي، معطف أسود ثقيل وطويل، وقفازاتي الجلدية السوداء، وحملت زجاجتين من المحلول الأزرق، الذي وجدته سابقًا في خزانة والدي، ومصباحي اليدوي، لم أكن أعرف ما نوع الشيء، الذي سأواجهه، لذا حملت مسدسي تحسبًا.

خلال الطريق تفاجأت من مقدار المعلومات، التي يعرفها أنطونيو عن الحظر الليلي، معلومات لا أعرفها أنا حتى كمفتش ليل، حتى أنه يعرف طرقًا مختصرة وغير مرئية للتسلل خلال الليل، ويعرف أن حارس المنطقة، التي أسكن بها لن يعمل الليلة؛ لأن زوجته تنجب الآن.

-حراس الشوارع كتير، مفيش ميزانية تكفيهم، إنت فاكر أنهم بيئدوا مهماتهم بإخلاص بمرتبات زي دي؟ افتح عينيك، يا أستاذ، حتى مفتشي الليل مش بياخدوا مرتبات كويسة إلا بألقابهم.

هكذا قال، وكان صادقًا بالتأكيد، حتى مفتشي الليل، الذين يعتبرون من أهم دعائم المجتمع لا يحظون بتقدير جيد إن لم تكن عائلاتهم معروفة، ويضطر بعضهم لتقديم خدمات إضافية، الأغنياء يدفعون بشكل جيد، والأجانب أيضًا، خاصةً إن عمل مفتش الليل كحارس ومستشار لهم، سيعيش حياة مثقلة بالذهب حتى يموت.

قطعنا الشارع الصامت بخطوات سريعة، وباتت أطلال قصر الباشا المهجور تلوح أمامنا وتقترب أكثر.

بدأ بناء قصر الباشا على يد مهندس إيطالي سنة ١٩١٨م، وانتهى من عام ١٩٢١م، وامتلكه باشا مصري يُدعى داوود عبدالهادي، حفيد الدكتور عبدالكريم عبدالهادي، عاش فيه مع زوجته وطفليه حياةً سعيدة، لكن سرعان ما ماتت العائلة بأكملها بعد أن سكنته بتسعة أعوام سعيدة، وبقي القصر خاليًا منذ ذلك الوقت، ولم يُطالب به أحد من الورثة، فحافظت عليه وزارة الأثار وحفظ التراث كمعلم أثري للمنطقة، رغم أنها لم تُعد ترميمه.

كانت بوابة القصر الحديدية مغلقة بقفل كبير، ظننت أن هذا يعني «لقد فعلت كل ما لدي، لكن الظروف لم تكن جيدة»، لكن أنطونيو كان مهووسًا تمامًا ومصرًا على دخول القصر، فجذبني جذبًا إلى جدار جانبي توسطته فتحة كبيرة محطمة مغطاة بفروع أشجار وطوب مكسور، أزاح أنطونيو العوائق عنها واحدة بواحدة، بينما سألته:

-إنتَ جيت هنا قبل كده؟

-مش كتير.

-ده لو جدتك عرفت يا أنطونيو..

حاولت تحذيره فقاطعني:

-مش هتعرف حاجة، أوعدني إنك مش هتقولها حاجة يا أستاذ قاسم، أنتَ مش فاهم اللي موجود ورا الجدار ده.

لم أكن أفهم لماذا هو متعلق بالقصر لدرجة أن يخرق القانون مرات عديدة ويعرض نفسه لخطر السجن، لقد عرفت أنطونيو منذ كنا أطفالًا، واعتدنا اللعب معًا عدة مرات، كان طفلًا رزينًا ومهندمًا، لكن ربما لا شيء يبقى على حاله بعدما نكبر.

دخل أنطونيو أولًا، وتأكدت أنا من عدم وجود أي شهود في المنطقة ثم تبعته.

دخلنا إلى حديقة القصر، الكبيرة المهملة، التي توسطتها نافورة دائرية كبيرة، متوقفة عن العمل، لا يملأها سوى الأوراق الجافة، وكل شيء في المكان بدا لي ميتًا بقدرها.

Visual Watermark

تحركنا بحذر عبر الفروع الجافة والأوراق المتكسرة نحو مدخل القصر، الذي حُفر على جانبيه بحروف بارزة مذهبة، الحرفين اللاتينيين الأولين من اسم المالك داوود الهادي، أسهل في الفتح من البوابة الخارجية الثقيلة، وبينما عبث أنطونيو في قفله ليفتحه، بدأت في التساؤل إن كان عمله الجانبي هو السرقة، بالنظر لمهاراته في اقتحام المنازل.

بمجرد أن فتح أنطونيو البوابة القديمة على مصراعيها وأشعلت مصباحي اليدوي، لأتبين لنا طريقًا عبر الظلام، شعرت بكتلة هواء ضخمة ترحب بي بقوة، لدرجة أني كدت أنقلب على ظهري خارج العقار، وتردد صوت قوي حولي، بدا وكأنه يخرج من عمق شيء مجوف، كما لو تحدث شخص ما داخل بوق.

-قاسم، أخيرًا جيت.

فُزعت وأنا أتلفت حولي، باحثًا عن مصدر الصوت، حركت مصباحي في كل اتجاه، داخل وخارج القصر، لكن كل ما رأيته هو لا شيء، فهمست لأنطونيو:

-إنت سمعت الصوت ده؟

-صوت إيه؟

نظر لي أنطونيو باستغراب، وكأنه يرى رجلًا مجنونًا، فقلت:

-ولا حاجة.

بدا لي ذلك مألوفًا أكثر من اللازم، لكني لم أرغب بالظهور بهيئة الرجل المجنون أمام أنطونيو، الذي أستطيع سماعه يتمتم وهو يشق طريقه عبر بهو القصر:

-أنتم يا مفتشي الليل عقولكم دايمًا غريبة.

عليك أن ترى ما أراه، ثم أخبرني إن كنت ستظل محتفظًا بما تسميه عقلك الطبيعي.

تبعت أنطونيو على عجل، مخافة أن أفقده وأضيع في هذه السرايا الواسعة في منتصف الليل المخيف.

صعدنا سلمًا حلزونيًا، كنت لأحب رؤيته في ضوء النهار؛ لأتبين ما تبقى من زخارفه الجميلة، ولون سجادته الذائبة، وروحت أتخيل كيف كان ليبدو القصر لو كان أهله ما يزالون أحياءً، لو كان هذا السلم حيًا، وهذه الردهة يانعة، وفجأة بدت لي كل تلك الأشياء مألوفة.

-شامم الريحة دي؟

توقف أنطونيو فجأة في منتصف الردهة فاصطدمت به، بينما كنت شاردًا، وكدت أسقط منكفأ على وجهي، فنظر لي أنطونيو بإحباط وغضب، وقرعني، قائلًا:

-ده مش وقت سرحان، ركز، الموضوع بدأ دلوقتي.

نفضت الوسخ عن ملابسي، ودافعت عن نفسي:

-مكونتش سرح...

سار أنطونيو سريعًا عبر الردهة واختفى دون أن يسمع توضيحي، فتبعته وقد بدأت أشعر بالانزعاج والتعب، فليلة إجازتي الوحيدة تضيع هباءً، بدلًا من أن أقضيها في النوم والراحة.

عبرنا الردهة إلى ممر أيسر يُفضي إلى مجموعة من الغرف، وبدأت ألاحظ وجود رائحة غريبة حقًا كما قال أنطونيو، لكني لم أتمكن من تبين مصدرها، أو أن أعرف نوعها.

وقفنا أمام باب الغرفة في نهاية الممر، وبدا لي أنطونيو مرتاعًا وهو يشير إلى شيء يراه يخرج من أسفل عقب الباب:

Visual Watermark

-بص يا باشا، شايف الدخان، دول بدؤوا، إحنا اتأخرنا.

حاولت طمأنته:

-أنا فعلًا مش شايف حاجة يا أنطونيو، إنتَ متأكد إنك مش مكتر في الشرب وجاي تعمل فيا مقلب؟

نظرت حولي وأسفل قدمي لكني لم أرى شيئًا، بينما ضاق أنطونيو ذرعًا بي، وأسرع يفتح باب الغرفة، التي توقفنا عندها.

بمجرد أن فُتح الباب شعرت برائحة غريبة تندفع عبر جلد أنفي وتتخلل عقلي، كما لو كان الهواء المحيط بي اختفى واستُبدل فجأة.

أغمضت عيناي للحظة؛ لأني شعرت بالدوار وعندما فتحتهما ثانيةً، كان الصباح المنير يضيء كل الأركان حولي، وأنطونيو قد اختفى، أما الغرفة، الخربة، رأيتها وقد عادت حية وعامرة، كأنما لم يعصف بها موت قط، الأثاث نظيف، والألوان نابضة.

-بص يا داوود، ده بيضحك.

تفاجأت من تلك الشابة، التي ظهرت في الغرفة من حيث لا أعرف، تحمل طفلًا رضيعًا بين ذراعيها.

ابتعدت سريعًا عنها؛ لكي لا تعلم بوجودي، لكنها بدت وكأنها لا تراني.

تحركت الشابة نحو زوجها، الذي جلس في زاوية الغرفة تجاوره صينية الشاي، وقد ترك الجريدة التي يقرأها واستقبلها وطفلهما بسرور.

لم أفهم ما نوع هذا المشهد الأسري السعيد، هل هو حلم؟ هلوسة؟ أم ذكرى محاصرة في هذا المكان؟ والأهم، من تكون تلك العائلة السعيدة ولمَ هي داخل رأسي؟ ولمَ أنا هنا أتطفل عليهم؟

عندما استيقظت ثانيةً وأصبحت حُرًا من تلك الهلوسة أخيرًا، كان صباحٌ حقيقي يُحيط بي، وكنت في غرفة في مشفى حكومي، ملفوفًا في عالم من الأبيض، لا أفهم إن كنت واعيًا حقًا أم محبوسًا داخل عقلي.

استندت إلى كفي محاولًا الجلوس باعتدال على السرير، عندما انتبهت إلى وجود شخص ما معي في الغرفة.

-صحيت؟ هنادي على الدكتور.

نهضت فريدة سريعًا؛ لتخرج خارج الغرفة ورأيتها تتحرك في الرواق من النافذة الزجاجية المطلة على الممر.

لم أستطع أن أفهم سبب تواجدها هنا، ولوهلة ظننتني ما زلت أمر بنوع من الهلوسة، لكن الفحص الطبي كان حقيقيًا، ثم لا توجد هلوسة بها العديد من الأشخاص دفعة واحدة، رغم ذلك بقيت مشوشًا، مما جعل فريدة تتساءل إن كنت بخير حقًا بمجرد أن غادر الطبيب، فأخبرتها أنني كذلك، لكنني مشوش، فقالت أن التشوش أمر طبيعي بعدما استنشقت تلك الكمية الكبيرة من الممنوعات.

-ممنوعات إيه؟ أنا مش مدمن؟

ربعت ذراعيها أمام صدرها، قائلةً:

-أنا مصدقاك، بس تحليل الدم بتاعك بيظهر عكس ده.

-قصدك إيه بعكس ده؟

عقدت حاجباي وأنا أسمع حديثها غير المنطقي:

-خليك صادق معايا، احكيلي عن الحاجات اللي مخبيها، وأنا هساعدك تخفي الموضوع عن أهلي،

Visual Watermark

أنتَ متعرفش عيلتي ممكن تعمل إيه لو عرفت إن خطيبي بيشرب مخدرات.

لم أكن أستوعب حقًا أي شيء مما ثرثرت به فريدة، وما هو التحليل، الذي أوصل لها كل تلك الأفكار الخاطئة عني؟

فُتح باب غرفتي دون استئذان وطل من خلفه مصطفى، بملابس العمل وبوجه منزعج، لكنه رحب بفريدة بلباقة:

-أهلًا يا هانم.

هزت فريدة رأسها هزة خفيفة:

-أهلًا يا أفندينا.

من الألفة بينهما، تساءلت:

-إنتوا تعرفوا بعض؟

-قضيت وقت تدريبي في مديرية مفتشي الليل، كنا زملاء عمل.

أوضحت فريدة، بينما تحدث مصطفى المنزعج:

-البس هدومك يا قاسم، أنا خلصت إجراءات خروجك من المستشفى، وأنا بتكلم معاك دلوقتي بشكل ودي؛ احترامًا لشراكتنا السابقة، لكن برا المستشفى إنت هتكون مطلوب القبض عليك.

-مطلوب القبض عليا؟ أنا؟

كررت مشدوهًا.

-هو إيه أصله ده؟ ما حد يفهمنا يا جماعة اللي بيحصل؟

-إنتَ اتمسكت وإنت نايم في قصر الباشا، خرقت قانون تعاطي المخدرات لمفتشي الليل، وتعديت على ملكية خاصة.

-أنا مش بشرب مخدرات، صدقوني، هو أنا ناقص جنان فوق جناني؟ وبعدين إيه كل التهم دي؟ أنا بريء، وعندي تفسير منطقي لكل ده...

نظرت فريدة نحوي باستغراب واهتمام، بينما قاطعني مصطفى بصرامة:

-لازم أفكرك إن أي حاجة هتقولها دلوقتي ممكن تتاخد ضدك في المحكمة، الأحسن تستنى لحد ما نوصل للمديرية وتوكل محامي.

-إنتَ أكيد بتهزر يا أفندينا؟

أملت أن يكون هذا مجرد حلم سيء آخر، لكن وجه مصطفى الغاضب وتجعيداته لم يختفي، بدلًا من ذلك اقتربت فريدة حيث أجلس، وانحنت بجذعها، قائلةً:

-حِلمك يا قاسم، اسمع الأول اللي عايزين نقولهولك، أنا ومصطفى عايزين نساعدك، كل اللي عليك إنك تقول اللي فاكره وبس، وأنا مصطفى هنحل الباقي، فاهم اللي بقوله؟

نظرت إلي بعينيها العسليتين الواسعتين، نظرة بريئة، تشع ثقة وراحة، ثقة في أني سأفعل مثلما تقول.

-إنتم عاوزني أعترف بحاجة أنا معملتهاش؟

-محدش فينا عاوزك تعمل كده، إحنا عايزين نساعدك، مش صح يا مصطفى؟

حركت رأسها نحو مصطفى، الذي كان يستند إلى الحائط مربعًا ذراعيه لصدره، متجهم الوجه، طالع فريدة لبرهة، وقد فاجأه أنها وضعته في سؤال، قبل أن يلين وجهه قليلًا ويومئ إيجابًا، فأعدت عيناي إلى وجه فريدة الواثق غير الصحيح، وتساءلت إن كان هذا نتاج أن تولد في عائلة تعيش في

Visual Watermark

قصر الملك.

ابتسمت فريدة في وجهي، وتابعت أوامرها:

-قول اللي إنت عارفه وبس، اتفقنا؟ هسيبك تجهز دلوقتي.

تحركت فريدة في الغرفة، ووضعت قبعتها فوق رأسها، قبل أن تغادر الغرفة، فأحنى لها مصطفى رأسه، وبمجرد أن غادرت نظر لي وتحدث:

-هستنى برا، أرجو إنك تخلص بسرعة، الضهر دخل.

وتُركت دون أن أفهم أي شيء، لكن كل ما كنت أعرفه أن هناك شيء ما خاطئ يُحاك خلف ظهري، وأني بحاجة لإجابات؛ ولأحصل عليها أنا بحاجة لمساعدة من الشخص الوحيد الموثوق به، طبيبي العزيز، دكتور طه.

***

منزل دكتور طه إسماعيل بالهرم_ الجيزة:

-حضرتك هتخرج يا بابا؟

تساءلت سلوى، الابنة الكبرى للدكتور، وهي ترى والدها يغادر غرفته على عُجالة، يرتدي بذلته الكمونية المفضلة لديه، ويعيد شعره الرمادي نحو اليسار بمشطه الأصفر البلاستيكي.

-إيوة يا حبيبتي.

احتارت سلوى من عجالة والدها، فتحدثت:

-طب مش هتستنى تتغدى معانا؟ ده أمي ثريا قربت توصل مع وليد.

والمعنية، بالأم ثريا، كانت الزوجة الثانية لدكتور طه بعد وفاة زوجته الأولى أمينة، ووليد هو الأخ الأصغر غير الشقيق لسلوى، تزوج والدها بالسيدة ثريا عندما كانت في المرحلة الإعدادية، عندما شعر أنها باتت كبيرة كفاية لتفهم ضرورة وجود شريكة حياة لوالدها، وقد توفيت والدتها إثر مضاعفات الولادة، التي مرت بها بعد إنجابها، وتولى والدها رعايتها لفترات طويلة، محاولًا التوفيق بين عمله غير المستقر، واحتياجات طفلته الرضيعة من الرعاية والاهتمام، لكنه عندما عاد مرة أخرى لممارسة مهنته الأساسية كطبيب كان بحاجة لوجود شخص ليعتني بابنته خلال ساعات غيابه الطويلة عن المنزل.

ربت طه على كتف ابنته، وهو يدخل قدميه في حذائه الأسود المريح.

-معلش يا حبيبتي، اتغدوا إنتوا من غيري، أصل قاسم مقبوض عليه في المديرية.

استدار نحو المرآة فوق خزانة الأحذية وأعاد ترتيب شعره الكثيف، ونظف نظارته بطرف بذلته، وارتداها على عجل، وأنهى هندامه ببضع رشّات من زجاجة كولونيا٥٥٥(11) شبه الفارغة، ريثما يجيب أسئلة ابنته، التي فزعت بمجرد أن سمعت بخبر اعتقال مريض والدها المقرب، وصكت صدرها، قائلةً:

-يا خبر يا بابا! قبضوا عليه! ليه؟ طب ده حتى قاسم طيب وغلبان.

-هو طيب وغلبان صحيح، بس دماغه مش شغالة، ده حتى مصطفى قايلي إنه عمل حاجات غريبة جدًا ليلة امبارح، ما هو لو فضل قاعد في المستشفى زي ما قولتله، بس أقول إيه!

ضرب طه كفيه ببعضهما، وتحرك نحو الباب؛ ليغادر، باحثًا في جيب سترته عن مفتاحه الشخصي، متابعًا:

-على العموم، ربنا يستر، أديني رايح أشوف المصيبة اللي عملها المرادي.

Visual Watermark

احتضن ابنته، التي أكل وجهها البريء ذو الخدين الممتلئين القلق، وزاغت عينيها العسليتين الرقيقتين.

-ابقي سلميلي على ماما وأخوكِ لما ييجوا.

هزت رأسها، وابتسم فمها دون وجهها المنكمش، وودعت والدها:

-حاضر، خلي بالك من نفسك، يا بابا.

ثم وقفت تشاهد والدها يغادر ويختفي وهو يرتدي طربوشه الأحمر المفضل، قبل أن تُغلق باب الشقة مستندةً إلى الباب الثابت مخافة أن تقع، مثلما وقع قلبها القلق، فمنذ أن رأت مريض والدها العزيز للمرة الأولى، عندما كانت في زيارة لوالدها في المورستان(12)، وهي لا تكف عن التفكير فيه، رغم أنها تعرف أنه بعيد جدًا عن يدها.

***

بقيت جالسًا في غرفة التحقيق الباردة وحيدًا صامتًا، غير شاعر بالغربة والوحشة، وذلك ما استفدته من الزيارة الأولى لهذه الغرفة، بدلًا من ذلك انتابني ذلك الخاطر، أني سأتكرر على هذا المكان لمرات كثيرة، فرُحت أفكر في الأشياء، التي تحتاج إليها هذه الغرفة الباردة والمعتمة؛ لتصبح صالحة للحياة فيها؛ لأحيا فيها، وارتأيت أن أرفع شكوى للمديرية لوضع لمبة جديدة بدلًا من القديمة، التي ملأها الغبار وامحى ضوؤها ولم يبقى منه سوى أثر.

منذ أودعني مصطفى هذه الغرفة، وأنا لم أرى وجهه ثانيةً، لا أعرف كم مر من الوقت وأنا أنتظر ظهوره على أمل أن أعرف ولو لمحة عن الحقيقة، التي حدثت في الفترة، التي غاب فيها الوعي عني.

حاولت بدوري أن أتذكر القرائن، التي أعرفها عن تلك الليلة، لقد كانت الساعة الثانية عشرة، جاء أنطونيو وطرق باب منزلي وتحدث بكل ذلك الهراء عن قصر الباشا والطقوس العجيبة، التي تُجرى فيه، كان حارس الليل غائبًا؛ لأن زوجته تلد، ثم تسللنا لقصر الباشا، وصعدنا للطابق العلوي، فتح أنطونيو أحد الغرف، ثم انتابتني رؤيا غريبة، ثم وجدت نفسي في المستشفى، متهمًا بتعاطي المخدرات وخرق قانون حذر التجول، إذن ما الذي حدث وجعل تحليل المخدرات في دمي إيجابي؟ هل يمكن أن أحدًا ما حقنني بها؟ أم أن تلك الرائحة الغريبة، التي شممتها في الغرفة هي السبب؟

اعتاد مفتشي الليل تعاطي المخدرات بكثرة، للسيطرة على عقولهم الخارجة عن السيطرة، لكن ذلك تسبب في حدوث إدمانهم وإيداعهم للمورستانات، فحدث عجز في عدد مفتشي الليل، نتج عنه صدور قرار رقم ٥٨ لسنة ١٨٩٨م، الصادر من مجلس العموم الأعلى، بسجن مفتش الليل، الذي يتعاطى المخدرات، خمس سنوات مع الأعمال الشاقة وتغريمه بمائة جنيه ذهب، وهو مبلغ ضخم ليجمعه مفتشي الليل البسطاء، خاصة الأصغر سنًا منهم.

اندفع ضوء شديد إلى عيناي، فأبعدتهما عن مصدره، ومن الباب المفتوح دخل مصطفى العسال ودكتور طه، الذي استغربت من مجيئه للمديرية وإلى هذه الغرفة بالتحديد.

-ما تفهموني يا أفندية إيه اللي بيحصل.

هتفت منزعجًا، فأسرع مصطفى يتحدث:

-اسمع وركز يا قاسم، احكيلنا بسرعة إيه اللي حصل قبل ما المراقب يجي، ومن غير أسئلة، الدكتور هيفهمك كل حاجة لما تطلع من هنا.

كنت أرغب في أن أسأل عن أشياء كثيرة، وأحرقني فمي لقول كل تلك الكلمات، التي اندفعت عبر عقلي إلى لساني، فصمت لبرهة أستجمع أفكاري، فهتف مصطفى المنزعج:

-يلا يا قاسم، بقولك مفيش وقت.

رحت أقص عليهما الحكاية، كما حدثت معي، وكما أذكرها، أنطونيو، القصر، الحارس، الذي أصبح

Visual Watermark

أبًا، الرائحة، وحجبت عنهما سرًا صغيرًا، عن الرؤية، التي عبرت في ذهني، واستمع كليهما باهتمام حتى النهاية.

-بس إنت كنت لوحدك في القصر يا قاسم لما الحارس لقاك.

قال قاسم مستغربًا:

-وهو أنطونيو هيفضل قاعد جمبي؟ أكيد هرب عشان رقبته متطيرش.

هز مصطفى رأسه يفكر، وطالعه الدكتور مترقبًا لما سيقوله، ثم تحدث مصطفى بعد لحظة من الصمت:

-تمام، أنا هتكلم مع أنطونيو، حاليًا إنت هتروح بيتك وهتفضل تحت مراقبة الدكتور، والأفضل متنزلش من البيت لحد ما نحل المشكلة دي.

-قصدك إني تحت الإقامة الجبرية في بيتي؟

-احسبها زي ما تحب، كله لمصلحتك في الآخر.

بعد ربع ساعة كنت أشغل مقعد الراكب جوار دكتور طه في سيارته الفورد الزرقاء، متجهين إلى منزلي في عين شمس.

-إنتَ هتفضل مكرمش وشك كده كتير؟

علق دكتور طه، فزفرت بحنق، قائلًا:عايزني أبقى إزاي يعني يا دكتور؟ أنا محطوط تحت الإقامة الجبرية جوا بيتي، وكلكم بتعاملوني زي ما أكون عيل صغير، ومحدش فيكم راضي يرسيني على بر.

-طب اهدى بس وأنا هقولك على كل حاجة، بس الأول جاوب على سؤالي ده، إنتَ فيه حاجة حصلت امبارح ومحكتهاش فوق؟

لم أفهم كيف وصل إلى هذا الاستنتاج، ولم أعرف بدوري كيف أجيب على سؤاله.

-شكل كان ظني في محله، إحكيلي إيه الحاجة اللي خايف إن المديرية تعرفها؟

اعترفت بعد لحظة من الصمت:

-مش عارف أسميها إيه، هلوسة، حلم، رؤية.

-طب ما تحكيلي ونصنفها سوا.

تنهدت:

-لما دخلت الأوضة امبارح، شوفت عيلة عايشة فيها، كان الجو لطيف، ولبسهم مكنش من الزمن ده، تحسهم كانوا في التلاتينات أو العشرينات، الزوجة كانت شايله ابنهم الرضيع، والزوج كان قاعد بيقرأ في الجورنال، كانوا فرحانين.

-وبعدين؟

سأل الدكتور باهتمام:

-بس كده.

-بس كده! يعني محصلكش حاجة تانية لما شوفتهم؟

استعجب الدكتور وأزال عينيه عن الطريق.

-لا، أديني أنا جاوبت على سؤالك، دلوقتي جه دور أسئلتي.

هز الدكتور رأسه إيجابًا:

Visual Watermark

-عندك حق، الحاجات اللي عملتها امبارح كفيلة تحطك في محاكمة مع مجلس العموم، وتسحب كل ألقاب عيلتك، لما الحارس لقاك وداك للمستشفى، وبالصدفة كانت خطيبتك موجودة هناك، فسكتت الحارس واديتله قرشين، واتصلت بمصطفى عشان يتأكد إن المديرية مش هيوصلها أي خبر، ما إنت عارف بمجرد ما المستشفى هتعرف إن تحليل المخدرات في دمك إيجابي هترفع خطاب للمديرية عشان تحقق معاك، فعشان كده مصطفى حجزك لحد ما يتطمن إن مفيش حد شم خبر باللي حصلك، رغم إن ده مخاطرة كبيرة لشغله، وفي نفس الوقت فريدة هانم اتصرفت في التقرير، وحاليًا معادش فيه دليل يثبت إنك اتعاطيت مخدرات.

تبًا لك يا أنطونيو، ليتني بقيت في منزلي ولم أخرج.

-بس أنا حقيقي مشربتش حاجة، ومعرفش إزاي وصلت الحاجات دي لدمي.

-ممكن تكون شربت بس نسيت، وارد يحصل، المهم نعرف أنطونيو اختفي فين، وإيه اللي حصل ليلة امبارح، أصل زي ما إنت فاهم، هو يعتبر شريكك فلازم يتحقق معاه، ولازم نقنعه يسكت.

وصلنا إلى الحارة الصامتة، وأوقف الدكتور سيارته أسفل العقار، ثم رحبت به في شقتي الصغيرة.

كانت نفيسة تموء، بالتأكيد جائعة بعدما ابتعدت عنها طوال تلك الفترة دون أن أتمكن من الاطمئنان عليها ورعايتها.

سارعت في حملها وربت عليها مطمئنًا إياها، تاركًا دكتور طه خلفي:

-خد راحتك يا دكتور، اعتبر البيت بيتك.

ملئت طبق نفيسة بالطعام، فأسرعت تلتهمه في نهم، بينما رفع الدكتور سماعة الهاتف ليطمئن أسرته بشأن غيابه عن المنزل الليلة، ثم صنعت لنا غداء خفيفًا من الفول، والبيض، والجبن والعسل الأسود، وجلسنا إلى طاولة الطعام في الصالة.

-مقولتليش يعني إنك مربي قطة.

نظرت نحو نفيسة، التي تركض في الأرجاء دون هدف.

-مين؟ نفيسة؟ ده أنا لسه لاقيها من قريب.

استنكر الدكتور:

-مسميها نفيسة؟ وهو حد في الدنيا يسمي قطة نفيسة؟

-أهو اللي جه في دماغي ساعتها، بس مش شكلها يدي على نفيسة فعلا؟

رن هاتف المنزل، فنهض دكتور طه للإجابة، قائلًا:

-تلاقيه مصطفى، أنا كتبتله رقم تليفون بيتك عشان تبقى عارف، عشان لو عرف حاجة يطمنا.

رفع الدكتور سماعة الهاتف، ثم انقلب وجهه في ثانية، فنهضت أقف بجواره لعلي أستمع لحديث مصطفى أو بعضه، لكني لم أستطع، بدلًا من ذلك ردد الدكتور:

-متأكد؟ طيب، طيب، تمام، أنا هبلغه.

ثم أعاد السماعة إلى مكانها، فسارعت بسؤاله:

-فيه إيه يا دكتور؟ مصطفى قال إيه؟

بدت الحيرة على وجه الدكتور، بدا وكأنه لا يعرف كيف يخبرني بما سمعه.

-في إيه يا دكتور؟

-مصطفى قال إن أنطونيو مكانش معاك امبارح.

Visual Watermark

-إيه؟ إزاي؟ ده أنا شايفه بعنيا.

بقيت الحيرة على وجه الدكتور:

-عنده حجة غياب قوية، كان بايت مع جدته، وفضلوا ساهرين لوش الفجر معاه.

تراجعت للخلف وشعرت برأسي يدور، بينما بقي صوت الدكتور يخترق هذا الضباب حولي:

-إنتَ متأكد إنك كويس؟ مفيش حاجة تعباك؟ إيه رأيك ترجع المستشفى لفترة؟

لم أكن أفهم كيف تتحول ذكرياتي عن البارحة إلى مجرد هلوسة؟ ولماذا قد أمتلك هذا النوع من الهلوسة؟ هل هو ضغط العمل؟ ام أني بت مجنونًا بالكامل؟

-قاسم.

هزني الدكتور من ذراعي، علّي أستفيق، ثم أخذت فترة المغرب كلها في محاولة لتنظيم عقلي وأفكاري، والحصول على بعض من الهدوء، قال مصطفى أنه سيأتي في الغد لمتابعة هذا اللغز الغامض، وحاول الدكتور التوصل إلى السبب، الذي جعل عقلي ينفجر بتلك الطريقة، وحرص على رؤيتي أبتلع حبة الدواء البرتقالية الكبيرة، التي كان قد وصفها لي عندما خرجت من المستشفى، وكنت أهملتها في الفترة الأخيرة، وظننت، وظننا جميعًا، أن هذا هو سبب الهلاوس، التي رأيتها على مر الأيام الأخيرة، لكننا سرعان ما سنكتشف جميعًا أننا مخطئون، وأن ما كان يحدث في عقلي، أكبر وأخطر من أسوء افتراضاتنا.

نمت في وقت متأخر من الليل، وبقي دكتور طه مستيقظًا لمراقبة عقلي وسلوكي، مثلما اعتاد أن يفعل عندما كنت نزيلًا في المستشفى، واعتادت نفيسة سريعًا على الدكتور، وأخذت تناوشه وتلعب معه، ثم نامت على ساقه عندما أنهكها القفز.

في الصباح الباكر، جاء مصطفى إلى عتبة بابي ثانيةً، وكان واضحًا أنه لم ينم كعادته، بمجرد أن رأيته سألته بقلق:

-عملت إيه؟

لكنه لم يجبني، وحث خطاه إلى داخل الشقة وجلس على كرسي السفرة، وكان الدكتور قد استيقظ على جرس الباب فخرج من غرفة النوم، التي أصررت عليه أن ينام فيها بما أني أنام في الصالة.

أشار مصطفى أنه بحاجة لكوب ماء، فأعطاه الدكتور كوبًا فاجترعه مرة واحدة، وبدا وكأنه لم يشرب منذ سنين.

ارتدى الدكتور نظارته وجلس على الأريكة، وجلست أنا على كرسيي الخاص، منتبهين ومتأهبين لما سيقوله مصطفى.

-دي كانت ليلة غريبة بشكل!

-ليلة إيه؟ إيه إللي حصل يا أفندينا.

سأل دكتور طه باستغراب، بينما التقط مصطفى نفسًا، قبل أن يعود للحديث:

-براحة عليا، هفهمكم كل حاجة، أصل أنا ليلة امبارح، بعد ما كلمتكم وقولتلكم اللي عرفته من أنطونيو، حسيت إن فيه حاجة مش مظبوطة في القضية دي، يا إما كلامك، يا إما كلامه، وعشان أعرف أحل القضية محتاج أعرف مين فيكم اللي كلامه غلط.

-وعرفت؟

سألته وقد أكلني القلق:

-إيوة.

Visual Watermark

نظر كلانا له باستغراب.

-إزاي؟

سكت مصطفى للحظة، ربما ليستوعب جنون ما فعله.

-دخلت قصر الباشا.

سأل دكتور طه مفزوعًا:

-إنتَ عملت إيه؟

-إنتَ دخلت القصر لوحدك؟

سألته أنا الآخر، وشعر كلانا أنه مجنون.

-كنت مضطر، لازم حد يعرف الحقيقة فين.

-طب، طب ولاقيت إيه؟

شعرت أن قلبي يكاد يتوقف من فرط التوتر.

-أنا لما دخلت واتمشيت في القصر شميت ريحة غريبة جدًا، فمشيت وراها لحد ما وصلت لأوضة...

-في الدور التاني؟

-بالظبط.

-هي دي، دي الأوضة اللي دخلتها.

-أنا أول ما دخلتها دوخت، ودماغي نملت وبعدين مش فاكر إيه اللي حصل، ولما فوقت لاقيت نفسي نايم على الأرض والصبح طلع، فجيت جري على هنا.

-إنت اتجننت يا مصطفى، ده معناه إن دمك دلوقتي فيه مخدرات إنت كمان، هتتصرف إزاي دلوقتي؟

غضب الدكتور وانفعل، بينما بقي مصطفى صامتًا، فلم يجد شيئًا يقوله، وقد غطاه التوتر، فتدخلت لأنهي هذا الصمت، وألفت نظرهم إلى أشياء أخرى أهم.

-أنا حاسس إن الموضوع ده وراه حاجة.

-بالظبط يا قاسم، الموضوع وراه حاجة غريبة ولازم ندور عليها، ولو حطينا إيدنا في إيد بعض هنلاقيها أسرع، أنا هقوم أعملنا كوبايتين شاي، وإنتَ يا حضرة الباشا، لازم تفضل معانا هنا لحد ما نتطمن إن مفيش مخدرات في دمك.

-يفضل فين يا دكتور؟

تحمحم مصطفى بإحراج، بينما قال الدكتور:

-لازم نتجمع يا قاسم لو عاوز تخرج من المشكلة اللي اتورطت فيها دي.

صمت أفكر، فعقب الدكتور عندها، وكأنه ينهي الموضوع:

-هعملنا شاي.

وانسحب إلى المطبخ يتصرف بمنتهى الأريحية، كما لو كان يسير في منزله، لن يجد عددًا كافيًا من الأقداح حتى.

قفزت نفيسة فوق ساقي، وبقيت تطالع وجه مصطفى المهموم فجلس بعيدًا عنها، والآن حتى نفيسة لن تأخذ راحتها في اللعب بسبب الغرباء.

Visual Watermark

صوت هاتف المنزل ارتفع معكرًا مزاجي، فخرج الدكتور مسرعًا للإجابة عليه، بينما كنت أتساءل لم هاتفي الأرضي يرن، فلم أعطي رقمي سوى للدكتور والدكتور أعطاه لمصطفى.

-إيوة موجود يا هانم، ثواني هندهله.

غطى الدكتور سماعة الهاتف وأشار لي بالمجيء، فهمست له:

-مين؟

-فريدة هانم.

أشرت للدكتور بلا، فلم أكن في مزاج يسمح لي بمحادثتها، لكن الدكتور دفع الهاتف لوجهي دفعًا.

-ألو.

صدر صوت فريدة، فتحمحمت لأتحدث بنبرة رسمية هادئة، بينما اعتذرت فريدة.

-ألو.

-معلش لو بكلمك في وقت بدري، بس ده الوقت اللي أهلي بيكونوا نايمين فيه، وأنا مش عايزاهم يعرفوا عن اللي حصل امبارح.

-مفهوم يا فريدة هانم، أنا كنت صاحي، متقلقيش، مأزعجتنيش خالص.

سمعتها تتنهد براحة.

-ريحتني، طمني، عامل إيه دلوقتي؟

-أحسن بكتير، متقلقيش أنا كويس، والموضوع هيتحل أكيد.

-أنا متأكدة، أرجو إنك تهتم بأكلك وأدويتك، إنتَ ابن عيلة مهمة لمصر.

-متشيليش هم.

رانت لحظة صمت بيننا، تساءلت فيها متى ستنتهي هذه المكالمة عديمة الفائدة.

-أنا مضطرة أقفل عشان أهلي زمانهم صحيوا.

-مفيش مشكلة، شكرًا لسؤالك يا هانم.

-العفو، ده واجبي.

-مع السلامة.

-مع السلامة.

سمعتها تغلق السمعة، فأسرعت بإغلاقها من طرفي أيضًا.

-حاجة غريبة جدًا، هي وصلت لرقمي إزاي؟ إنت اديت رقمي لفريدة يا مصطفى؟

نظر لي مصطفى باستغراب:

-لا.

-عجيبة، أومال هي جابت الرقم منين؟

ظهر صوت الدكتور مكتومًا:

-مني أنا.

التفت نحو الدكتور،كما لو كنت يوليوس قيصر مطعونًا من بروتس:

-إنتَ يا دكتور! طب ده حضرتك آخر واحد كنت أتوقع منه كده، أعمل إيه دلوقتي؟ ده زمان

Visual Watermark

رقمي لف شارعنا كله.

عند هذه الجملة انتابتني لحظة إدراك عنيفة بأن والدتي وجدتي، قد يجتمعون في منزلي قريبًا إن تأكدوا من صحة الرقم، الذي حصلت عليه خطيبتي فريدة هانم؛ لذلك قفزت عبر الصالة كما لو كنت بطلًا خارقًا في محاولة لإنقاذ هاتفي وصحتي العقلية، وسارعت أنزع أسلاك الهاتف بعيدًا عنه.

-إنتَ بتعمل إيه؟

سأل الدكتور مستغربًا:

-بنقذ بيتي.

هتفت:

-لو حد من أهلي عرف الرقم هنقل من البيت.

خرج مصطفى من المطبخ يحمل ثلاثة أكواب من الشاي، وينظر لنا بغرابة:

-مالكم واقفين كده ليه؟

رمقت الدكتور بنظرة انزعاج، وابتعدت جالسًا إلى الأريكة.

وضع مصطفى الصينية على الطاولة الصغيرة أمام الأريكة، والتقطت أحد الأكواب، بينما حاول الدكتور الاعتذار إلي:

-أنا آسف يا قاسم عارف إني مكانش ينفع أديلها رقمك، بس هي كانت قلقانة عليك.

تبرمت:

-كان ممكن أطمنها عليا بأي شكل، أو على الأقل كان حضرتك استأذنتني، متعودتش أبدًا إنك تطلع أسراري لحد يا دكتور.

صمت الدكتور، وبدا محرجًا، بينما تدخل مصطفى:

-خلاص يا قاسم محصلش حاجة لكل ده، جل من لا يسهو، المهم إننا نركز ونشوف هنعمل إيه في المشكلة اللي اتحطينا فيها.

تنهدت، وهززت رأسي إيجابًا، وشعرت أني زودتها، وتركت توتري من حادثة القصر يؤثر على علاقتي بالدكتور طه.

بعدما شربنا الشاي، خرج ثلاثتنا إلى أرشيف مديرية مفتشي الليل، في الدقي، وهو مبنى ضخم من ثلاثة طوابق، يحوي جميع الوثائق والأبحاث، التي كُتبت حول الوباء، ويحمل أيضًا مراجع تاريخية حول تاريخ بعض المباني المهمة، التي وُجد فيها بعض الآثار حول الوباء، أو كان قاطنيها قد أصيبوا بحالة تلبس، لمعرفة الأماكن، التي يُمنع السكن فيها، والأماكن، التي تحتاج لتنظيف مستمر من مفتشي الليل، ويعتبر مرجع مهم للمديرية وموظفيها.

أنشئ المبنى بعد ٣ سنوات من إنشاء مديرية مفتشي الليل، قريبًا منها ليسهل الوصول إليه، وفي بدايته احتوى على طابقين فقط، وكانت المديرية تستخدمه لتخزين الأدلة والورق الفائض عن أرشيف المديرية ذاتها، لكنه جدد منذ سنوات قليلة وأضيف إليه طابق ثالث.

انقسم الطابق الأرضي إلى مكتب استقبال، ومكتب أمن، ومكتبة للباحثين؛ للدراسة في جو هادئ، مع بعض الكتب والأبحاث، التي يُسمح بنشرها ومشاركتها مع غير الموظفين في المديرية المخول لهم بالاطلاع على الوثائق التاريخية الهامة.

كان مصطفى يعرف الرجل المسؤول في مكتب الاستقبال، رجل قصير، سمين، في الثلاثينيات، يرتدي قميصًا أبيض ناصعًا، وسديري أسود، ويحمل على صدره شارة بيضاء، مكتوب عليها اسمه ووظيفته

Visual Watermark

(مدحت نور، موظف استقبال).

صافح مدحت مصطفى بحرارة، وعرض عليه شرب كوب من الشاي، لكن مصطفى رفض بلباقة، وتقبل مدحت الرفض بأدب، لحسن الحظ؛ لأن معدتي لن تحتمل كوبًا آخر من المشروبات الساخنة.

قدم مصطفى مدحت لنا، وعرّف مدحت بنا، وأخبره أننا قادمين لتصفح بعض الأوراق الخاصة بمهمة ما، وقد كنت قلقًا أن يطلب مدحت ورقة إذن الوصول للأرشيف، التي عادة ما تُطلب في أوقات كهذه للسماح بالعبور إلى الطابق الثاني، حيث تقع الأوراق والوثائق الأكثر أهمية، وهناك طابق واحد فقط لا يُسمح بالوصول إليه، حتى لو كنت مفتش ليل من رتبة كبيرة، الطابق الثالث المخصص للآثار الحية، لا أحد يعلم بالضبط ما الأشياء الموجودة هناك، والأشخاص الوحيدين، الذين يُسمح لهم بالدخول، هم خمسة أفراد يختارهم مجلس العموم الأعلى بعناية فائقة، ويقسمون على السرية، فلا أحد يعرف أنهم يعملون هناك، حتى عائلاتهم، وأيا كان ما يرونه هناك يبقى معهم حتى الموت.

اقتادنا مدحت إلى الطابق الثاني، بعدما أمر زميله المبتدئ أن يجلس إلى مكتب الاستقبال، وكان زميله مدهوشًا؛ لأنه كان شبه نائم في كرسيه.

-أخبار الست والدتك إيه دلوقتي؟

سأل مصطفى مدحت ونحن نصعد على السلالم المبلطة.

-بخير يا باشا، وبتدعيلك.

ابتسم مصطفى، وتبادلنا أنا ودكتور طه النظرات.

وصلنا إلى الطابق الثاني الهادئ والفارغ، فلم يكن هناك سوى أربعتنا، وصوت احتكاك أحذيتنا على الأرضية المبلطة بالرخام، ورغم أن الطابق بدا فارغًا لفترة من الوقت، إلا أنه كان نظيفًا بشكل غريب.

فتح مدحت باب إحدى الغرف الخمسة، التي تكون الطابق الثاني، وقال ببشاشة:

-خد وقتك يا مصطفى أفندي.

-متشكر يا مدحت.

-متقولش كده يا أفندي، طب ده يا ريتنا نقدر نوفيك حقك، تحب تشرب حاجة؟

ربت مصطفى على كتف مدحت:

-تسلم يا مدحت، متتعبش نفسك.

-وإنتوا يا أفندية، مش هتشربوا حاجة؟

هززت رأسي نفيًا، بينما أشار دكتور طه:

-فنجان قهوة على الريحة، من فضلك.

-دقايق ويكون عند حضرتك.

صاح مدحت بحبور وكأنما يستقبل ضيوفًا أعزاء في منزله.

-أنا هسيبكم بقى تشوفوا شغلكم، بالإذن منكم.

راقبناه حتى غادر، قبل أن نلتفت إلى مصطفى.

-هو أنت تعرفه منين؟

سأل دكتور طه.

Visual Watermark

-أنقذت أخوه الصغير من شخص كان عنده حالة تلبس زمان.

أجاب مصطفى بشكل عادي وهو يبحث في كومة أوراق مغلفة بالبلاستيك، بينما نظرت أنا في الأرجاء، لم تكن جميع الوثائق مغلفة بالبلاستيك، وخاصة الكتب كبيرة الحجم، التي يستحيل تغليفها.

نبهنا الدكتور لئلا نلمس الأوراق المكشوفة، بينما خرج مصطفى إلى قاعة الانتظار لجلب زوجين من القفازات البلاستيكية؛ ليرتديها هو والدكتور طه، ولحسن الحظ، أنا لا أسير دون قفازاتي، فأنا لا أثق في القفازات البلاستيكية الرقيقة.

-هو إحنا بندور على إيه بالظبط؟

سألت وأنا أزيل الغبار عن كتاب ذو غلاف بني مهترئ.

-أي حاجة تفهمنا إيه اللي حصل في قصر الباشا، أو تشرح لنا إيه الحاجة اللي حصلت لينا فيه.

أجاب مصطفى، فهززت رأسي، وعدت أبحث بين الرفوف حول أية وثائق، أو ملفات تتحدث عن فترة بناء القصر، أو العائلة، التي سكنته، وكنت أعرف بالطبع، أن داوود كان حفيد دكتور عبدالكريم عبدالهادي، الذي تتوسط صورة له مع والدي في طفولته وجدي، ألبوم صور العائلة.

أثبت دكتور عبدالكريم أن الورق هو المسؤول عن انتقال المرض من خلال تجربة علمية أمام رئاسة مجلس العموم، حيث حفز إصابة شخص محكوم عليه بالإعدام، بحالة تلبس من خلال إجباره على لمس ورقة مصابة، هكذا حكى لي جدي، قال أنه لا يوجد الكثير من الناس، الذين يعرفون بهذه الحكاية، فمجلس العموم منع نشر خبر التجربة، كانوا بحاجة لإضفاء طابع خير ومضيء على عملهم؛ لكسب ثقة الشعب، لا أن يظهروا بمظهر الوحوش، كما أن نشر خبر كهذا، سيظهر مجلس العموم بمظهر الأشخاص، الذين يمتلكون القدرة على نشر المرض بين عموم الشعب، وهذا كان أكثر ما خشوه بعد تلك التجربة، أن يفقدوا تأييد الشعب لهم، وبالتالي، فقدان المكانة، التي وصلوا إليها، ووافقهم الدكتور عبدالكريم، وبقي الجميع صامتًا، وتظاهروا أن لا شيء من هذا قد حدث.

أنجب عبدالكريم سبعة أبناء، وتزوج مرتين، وعاش حياة مترفة، وترقى في المناصب حتى أصبح وزيرًا للصحة والإسكان، ولم يبيض شعر رأسه قبل الخامسة والستين، وعاش أكثر من أبنائه، الذين توفي أغلبهم في سن صغيرة، ولم يبقى منهم سوى بنتين وصبي، اختفت إحداهما في ظروف غامضة وجُنت الأخرى، وتوفي عبدالكريم عن عمر الخامسة والثمانين، بعدما رأى من أبنائه عشرة أحفاد، وكان داوود آخر من تزوج من إخوته، وأنجب صبيين، لم يرى الدكتور منهما سوى الصبي الأكبر، أنس، أما الصبي الأصغر، علي، فلم تتسنى له الفرصة للقائه، فقد توفي عبدالكريم قبل عامين من ولادته، ثم وفي ظروف غامضة، احترق قصر داوود ومات هو وعائلته وجميع خدمه، ولم يطالب أي أحد من الورثة القانونيين بالقصر منذ ذلك اليوم وحتى الآن.

-هو مش يمكن دي تكون لعنة؟

نطقت بحماسة، وأنا أرى هذا التفسير المنطقي يتشكل في ذهني.

-مستحيل.

قال مصطفى.

-مستحيل ليه؟ مش هما ماتوا محروقين؟ دي موتة تخلي القصر كله بسم الله الرحمن الرحيم.

-كلام قاسم منطقي، وإلا إيه يفسر الدخان اللي بيطلع منه؟

أيدني الدكتور، فقلت وقد شعرت بالأدرينالين يشع في عروقي، وأن الطريق أصبح واضحًا أمامنا.

-بالظبط.

Visual Watermark

طالعنا مصطفى بصمت لبضعة لحظات، قبل أن يقول:

-بس ده برضو افتراض ملوش أدلة كتير، المحكمة والمديرية مش هيقتنعوا، لو عاوزين نثبت إن فيه حاجة في القصر محتاجين نلاقي أدلة قوية تدعم كلامنا.

وهكذا عدنا نبحث في تلال من الورق القديم قدم المعلومات، التي يحتويها، جاء مدحت ومعه كوب القهوة لدكتور طه، وشعرت بالضيق أني لم أطلب كوب شاي عندما كانت الفرصة متاحة، لكن على أي حال سرعان ما نسيت أمر الطعام والشراب وأنا أنغمس في أكوام من الأتربة وحشرات الورق.

غربت الشمس ولم نصل لأي شيء يذكر، نبهنا مدحت لضرورة المغادرة قبل موعد حظر التجول، لكن مصطفى تفاهم معه وأقنعه بتركنا في المكان لفترة أطول، لأن معنا مفتش ليل، أنا يعني، ويمكن أن نغادر في الليل بأمان، ورحل مدحت بعدما ترك نسخة احتياطية من البوابات مع مصطفى لنتمكن من الخروج عندما نحتاج لذلك.

عندما أصبحت الساعة الثامنة مساء، هبط دكتور طه للمطبخ في الأسفل وصنع لنا المزيد من أكواب الشاي، بينما جلست أنا ومصطفى في الطاولات المتراصة في الطابق الثاني وقد أنهكنا التعب والصداع، وشعورنا بأن لا شيء من هذا له معنى.

-شكلنا مش هنلاقي حاجة هنا، كل الورق قديم وملوش لازمة.

تذمرت منزعجًا، بينما بقي مصطفى يراجع آخر وريقات في ملف قديم، وعاد دكتور طه محملًا بثلاثة أكواب من الشاي، وطبق بسكويت مملح، قائلًا:

-لاقيت عندهم بسكوت في المطبخ، طعمه مش أحسن حاجة، بس أهو حاجة تسد الجوع.

-يا ريتنا كنا اشترينا أكل قبل ما المحلات تقفل.

قلت وأمسكت الصينية من دكتور طه وأفسحت لها مكانًا على الطاولة، بينما جلس الدكتور على الكرسي متألمًا يمسك بركبته:

-يا ريتني جيبت دهان علاج الخشونة معايا.

ثم ألقى نظرة على مصطفى الغائب عن محيطه، والعرق يضيء على جبينه، وسأل:

-هو مصطفى ماله؟

-مش عارف، مصمم يحل القضية.

-ما إحنا محتاجين نحلها، بس مفيش حاجة هنا مفيدة نقدر نبدأ منها.

-شكلها هتكون لعنة فعلًا زي ما قولت.

-لا.

نطق مصطفى فجأةً من اللامكان، فجفلنا أنا والدكتور.

-لا ليه؟ وهو إحنا لاقينا حاجة؟

سأل الدكتور.

-إيوة، شوفوا الملف ده مكتوب فيه إيه؟

فتح مصطفى ملف قديم وبالي ووضعه في المنتصف أمامنا.

«١٥ أغسطس ١٩٣٠م.

مديرية مفتشي الليل

Visual Watermark

وقد خلصت التحقيقات إلى أن القتيل داوود عبدالكريم عبدالهادي، كان في علاقة مشبوهة مع منظمة سرية تدعى (الأبديين)، وهو ما يرجح تعرضه للاغتيال على يدهم، وأن الحريق، الذي نشب في قصره كان مفتعلًا.

حُرر في ٢٠ أغسطس ١٩٣٠م.

اللواء المشرف:_____

الكود الرمزي:_____»

-هو اسمه مشطوب ليه؟

كانت تلك أول ملاحظة قالها الدكتور، وهي ملاحظة ذكية ومنطقية، فتحقيقات مديرية مفتشي الليل لها أهمية بالغة؛ لذلك من المهم المحافظة على اسم كاتب التقرير وكوده الرمزي، كمرجعية في التحقيقات والمحاكمات، كما أن من الغريب أن يُحذف كاتب التقرير فقط دون حذف محتواه، إن كان من الضروري حذف الأدلة، فحذف الاسم يعني شيئًا واحدًا، هناك شخص لم يرغب في التورط في هذا الأمر، هكذا أوضح مصطفى لنا.

-يعني الكلام ده معناه إيه؟ وإيه علاقته باللي حصل لينا في القصر؟

سألت وأنا أشعر بالغباء، كانت هناك الكثير من النقاط غير المفهومة في هذه الورقة المشقوقة.

-ده معناه إن المنظمة دي بتطاردنا دلوقتي، أو بمعنى أصح، بتطاردك إنتَ يا قاسم.

قال مصطفى بنبرة هادئة، لكن عقله كان غير هادئ.

Visual Watermark

الحقيقة، هي شيء يصعب الوصول إليه.

اعتدت أن أسمع عمتي تقول هذا لوالدي وعمي في كل مرة خرجوا فيها؛ لاستكشاف شيء جديد، ولم أكن أفهم ما تعنيه، لكني الآن، في هذا الوضع المؤسف، أفهمه.

منذ أن غادر ثلاثتنا الأرشيف تلك الليلة من الأسبوع الماضي، وكلمات مصطفى تتردد في ذهني كمذياع خَرب يستمر في إعادة ما يقوله، كنت خائفًا أحيانًا وغير مكترثٍ أحيانًا أخرى، لكن الثابت أني لم أعرف كيف أتصرف طوال الوقت.

الأمر أني لا أعرف من يكونون، ولماذا قد يستهدفونني، أنا لست جزءً منهم، ولست جزء من أي شيء، وإن كانوا يستهدفونني بسبب اسم عائلتي، مثلما قال مصطفى، فهل هذا يعني أنهم استهدفوا والدي وإخوته أيضًا؟ وإن كانوا قد فعلوا، فهل كانوا السبب خلف الحادث، الذي تسبب في موتهم؟ أكاد أجن، عقلي لا يتوقف عن الدوران، ومهدئات دكتور طه لم تعد تؤتي نتائجها.

عاد مصطفى إلى منزله في روض الفرج حيث يعيش مع والديه، وأخذت أنا إجازة من عملي بسبب المرض، فلم أكن في حالة مزاجية وذهنية تساعدني على حل أية مشكلة، بينما استمر دكتور طه في المبيت معي للاطمئنان على صحتي، وجاءت ابنته الأنسة سلوى عدة مرات؛ لإعطاء والدها دواء وملابس نظيفة، وملأت لنا ثلاجتي الفارغة بأطعمة مطبوخة، وجبنة قديمة، وعسل أسود وجبنة قريش ولتر لبن، وشعرت بالإحراج؛ لأن الجميع يرعاني ويهتم بي دون مقابل؛ لذلك تناقشت مع الدكتور وأقنعته أني بخير وأن بقاءه معي غير مفيد، وأنه رب أسرة ويجدر به العودة إلى منزله وعائلته، فلا يصح أن يتركهم بمفردهم طويلًا، وأمام إصراري العنيد رضخ، وعاد إلى منزله عصر أمس، وعاد منزلي خاويًا ساكنًا، لا شيء فيه يبدو على قيد الحياة، لكن على الأقل لدي نفيسة، التي تحاول التخفيف عني ما يعتمل في صدري، فلقد أحست بي وبقلقي وأصبحت لا تفارق جانبي خلال الأيام الماضية، وتنام في حضني، وبلعبها المضحك، وبمشيتها العجيبة، أشعر في قلبي بالسلام لبعض الوقت، لكن الجلوس والاعتماد على الآخرين لن يجعلني شخصًا حيًا، ولن يخرجني من هذه المأساة.

بعد صلاة الظهر، ارتديت ملابسًا خفيفة، فالجو يصبح أكثر دفئًا مع وصول الربيع، تخليت عن معطفي الجلدي لليوم، وارتديت سترة صوفية بنية مع بنطال بني مريح، وقفازاتي العزيزة، وتركت نفيسة بعدما ودعتها مع صاحبة العقار، وقبل مغادرتي من أمام بابها، وجدتها تقدم لي طبقًا من الكعك المنزلي، الذي كانت قد توقفت عن إعداده منذ أعوام طويلة، فلا يوجد أحد لتشاركه صينية الكعك الكبيرة، وستفشل في إنهائها قبل أن تفسد؛ لهذا كانت سعيدة وهي تصنع الكعك مرة أخرى بعد كل هذه السنوات؛ لأنها رأت في شخصًا يمكنه مشاركتها نصيبًا من الكعك.

بعدما حفظت طبق الكعك في ثلاجة المنزل، غادرت العقار والشمس الدافئة الخفيفة تزين السماء، ورائحة الأزهار المتفتحة تملأ الهواء، وكانت الأرض لم تجف بعد من الأمطار، التي هطلت عليها ليلة أمس.

خرجت من الحي، وتنقلت سيرًا على الأقدام في حواري عين شمس العتيقة، حتى وجدت سيارة أجرة اصطحبتني إلى المركز القومي لحفظ التراث والمعرفة، وهو مكان أشبه بأرشيف مديرية الليل، لكنه مفتوح أمام العامة والدارسين دون قيود، ويحتوي مئات المخطوطات التاريخية والأثرية، التي تحكي عن تاريخ مصر القديم والمعاصر، وفترة الوباء، بالإضافة إلى برديات وكتب وموسوعات.

تذكرة الدخول مجانية للطلبة بشرط إظهار ما يثبت ذلك، أما لغير الطلبة، فتذكرة الدخول ٤ صاغ(13)، قدمتهم لمسؤولة الاستقبال، وقد كانت امرأة أربعينية نحيفة بشكل غريب، ولها نظرات غاضبة غير مبررة، بمجرد أن أخذت منها التذكرة انطلقت بخطوات سريعة إلى لوحة الإرشادات الضخمة المعلقة على الحائط جوار السلم في الطابق الأرضي، وتظهر مخططًا للمبنى، ومخطط الأدوار، كان الطابق الثالث هو طابق البرديات والبحوث الأثرية، فصعدت إليه ركضًا، لكني أدركت

Visual Watermark

أني جئت متأخرًا، فجميع الطاولات والكراسي في الطابق الثالث مشغولة تمامًا بالطلبة والباحثين، نظرت يمينًا ويسارًا بحيرة، فلم أكن أعرف من أين أبدأ أو أين أبحث، وبقيت ألهث في محاولة لتنظيم أنفاسي بعدما ركضت كثيرًا، نقر شخص ما فجأة فوق كتفي، فجفلت والتفت سريعًا، وأظنه ارتعب وظن أني سأضربه بسبب تعبيري المنزعج فلا أحب أن يلمسني أحد، مد الرجل كفيه وكأنه يحاول إيقافي قبل أن أفعل شيئًا عنيفًا، قائلًا:

-حضرتك بتدور على حاجة؟

نظرت له بتشوش للحظة، فلم أكن أفهم من يكون ولماذا نقر كتفي؟

-حضرتك شغال هنا؟

سألته.

-إيوة، حضرتك بتدور على حاجة؟

-اه.

-طيب، حضرتك حابب تروح لمكان معين؟

-لا، أنا هعرف أوصل بنفسي.

هز الموظف رأسه بتفهم، وانسحب من المشهد، لكني بقيت منزعجًا لوقت أطول، فلم أحب ان يلمسني الأخرون بشكل مباغت، ليس في مثل هذه الأوقات الخطيرة لعقلي.

تمشيت في الطابق ذهابًا وإيابًا، ولم أشعر بمرور الوقت، رغم أني لم أوفق في بحثي، فكل الكتب والأبحاث الموجودة، تتحدث بشكل عام حول الأساطير المصرية، وحول الأخويات السرية، التي ظهرت في تاريخ الملكية، منذ بدأ الوباء، لكن لا كتاب تحدث بشكل صريح وعميق حول الأبديين، أو أعضاءها، أو كيفية نشأتها؛ لذلك اضطررت أن أعود، خائب الأمل، إلى المنزل، قبل موعد حلول المساء.

عندما وصلت كان الدكتور ومصطفى متواجدان، يتناقشان حول ما اكتشفناه عن قصر الباشا، ويضعون نظرياتهما معًا.

رحبا بي عندما عدت، لكني لم أكن في مزاج رائق للحديث، فقد كنت مرهقًا جدًا؛ لذلك بدلت ملابسي ونمت على الأريكة، وتركتهما يكملان حديثهما.

***

قدماي الحافيتان لامستا أرضية ساخنة، الدخان أغام بصري، فلم أستطع أن أعرف شيئًا عن محيطي وموقعي، وكل ما أدركته بصيرتي أنني كنت في حيز يحترق.

دُرت حول مداري محاولًا أن أرى أي دلالة على النجاة، أو علامة ترشدني إلى أين أكون، أو كيف انتقلت من سريري الدافئ إلى هذا المدى؟

-داوود.

صرخة مفاجئة خرجت من خلفي، فالتفت إلى حيث جاءت وأنا قلق، هل هذا حلم آخر عن داوود عبدالهادي وعائلته؟

-داوود.

صرخت المرأة بذعر، أعلى وأعلى، وسمعت أشياء تسقط، أشياء ثقيلة وكأنما تتساقط من السماء، فركضت إلى حيث يصدر الصوت محاولًا شق الضباب؛ للنجاة بنفسي بعيدًا هذا السقف، الذي يتداعى.

Visual Watermark

- حسناء، حسناء، إنتِ كويسة؟

ركض رجل مألوف نحو المرأة المتكومة أرضًا يتفحصها ويطمئن عليها، بينما ترتجف وتبكي:

-خدوه يا داوود، خدوا ابننا.

--مين.. مين اللي خدوه؟

-منار، منار سرقت علي.

أصبح داوود مذعورًا وتلفت حوله وكأنه يبحث عن طوق للنجاة.

-هنلاقيه، هنرجعه، المهم دلوقتي نطلع من هنا.

حاول داوود أن يظهر كفارس آلِف مائة معركة، وهو يجذب زوجته؛ لتقف على قدميها، ومن خلفهما ظهر صبي صغير، مرتاع، وتذكرت أن لداوود صبيين، أنس وعلي.

حمل داوود أنس، الذي احتضن لعبته القماشية، على كتفه، وأسند زوجته بيده الأخرى، وعبرا من جانبي أسفل النار، والعويل وروائح الجثث البشرية، واختفيا عن عيني في الدخان المتراكم.

قيل في تقرير القضية، أن الجثث الثلاثة وجدت محترقة معًا.

-قاسم، اصحى يا قاسم، فوق يا بني.

-إيه؟ إيه؟

-بسم الله، بسم الله، إنتَ كويس، إنتَ كويس.

هدأت أنفاسي المذعورة وأنا أراني مرة أخرى على أريكة الصالة ويجاورني دكتور طه ومصطفى، نظرت لكليهما وجلست على الأريكة أمسح وجهي بكفي.

قدم مصطف كوب ماء لي، فاجترعته مرة واحدة، وبعدما زال عني الروع، سألني دكتور طه:

-إيه اللي حصل؟ شوفت إيه خلاك تصرخ بالشكل ده؟

-هو أنا كنت بصرخ؟

سألتهما باستغراب.

-ده أنت شيبتلي شعري.

قال مصطفى.

-جرالك حاجة؟ الهلاوس رجعت؟

سأل الدكتور، فهززت رأسي وأنا أترنح بين الشك واليقين:

-مش عارف، مش عارف.

-طب ما تحكي، يمكن إحنا نعرف.

قال الدكتور، محاولًا طمأنتي كعادته، بينما أخذت لحظة لأجمع أفكاري؛ لأصدق أن السخونة، التي أشعر بها في قدماي الآن ليست حقيقية، ثم رفعت رأسي لهما منتظرًا أن يعلق أحدهما بشكل ساخر على ما سأقوله فيذهب الخوف عني وأسخر معه من عقلي وذاتي:داوود عبدالهادي، عنده ابن لسه عايش.

Visual Watermark

الفصل الثالثة: أبعد من اليد

هل تُزعجك جرأتي؟

لماذا تتسربل بالكآبة؟

لأني أمشي وكان بئر نفط

يضخ في إيوان منزلي.(14)

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

على عكس المتوقع، اقتنع الدكتور ومصطفى بحلمي وبقولي، فعلى حد تعبيرهما، أنا مفتش الليل بيننا، وأحلام مفتشي الليل ليست عادية، وهكذا انطلق ثلاثتنا في بحث سري عن الابن الأصغر المفقود لداوود باشا، علي، فقد شعرنا أن بإيجاده سنكون قد حللنا لغز الغرفة في الطابق الثاني والأخوية، التي تطاردنا.

راجع مصطفى بلاغات المخطوفين والمفقودين منذ تاريخ حرق القصر وحتى عشر سنوات بعد ذلك، لكن البحث التفصيلي لستة أسابيع، لم يُسفر عن أي شيء، لا توجد بلاغات مفقودين أو مخطوفين باسم علي داوود عبدالهادي، وأثار ذلك تساؤلاتنا، لماذا لم يبحث أقارب داوود عن طفله المفقود؟ ولماذا لم يذكر في تحقيق المديرية اختفاء جثة علي؟ هل كانت الشرطة تعرف عن وجود جثة مختفية وتلاعبوا بالتحقيق والأهل؟ أم أنهم كانوا لا يعرفون حقًا أن هناك جثة مفقودة لطفل مفقود؟ كل سؤال أعطانا احتمالات كثيرة أخرى وحوائط صماء، كنا نركض لوقت طويل، وفي طريق طويل؛ حتى نسيت لماذا بدأنا الركض من الأساس، ما الذي كان ليحدث لو لم يهتم مصطفى بإخفاء وجود المخدرات في دمي؟ لا، ليس هذا السؤال الصحيح، السؤال الصحيح هو، ما الذي كان ليحدث لو بقيت في منزلي تلك الليلة؟ لو قلت لا؟ لو لم أفتح باب منزلي لليل؟

عدت لعملي أنا الآخر، وقطعت إجازتي، فبقائي في المنزل كان يقربني خطوة أخرى من المصحة، من الجنون، ورغبت أن أتعمق في بحثي في الأرشيف المغلف في المديرية.

مكاتب مفتشي الليل أوسع وأكثر راحة من مكاتب الأرشيف المدفونة أسفل الأرض، عادة ما يشترك اثنين إلى ثلاثة من مفتشي الليل في مكتب واحد، لكني كنت أمتلك مكتبي الخاص؛ لأن لقبي هو «الدالي» وانحداري من عائلة ساعدت المملكة لسنوات طويلة أعطاني هذا الامتياز، وحتى في وسطنا المتكافئ هذا، التمييز الطبقي ما زال موجودًا وبقوة، وصحيح أني كرهته، إلا أن الامتيازات، التي أمتلكها، ومدى الحرية، الذي أتمتع به أكثر من غيري، يفيدني في مثل هذه الأوقات.

في فترة الغداء، اختفيت عن المحيط، ولم يفتقدني أحد، فالجميع يعرف غرابة أطواري المتعلقة بالطعام والشراب، وهبطت إلى الطابق السفلي، حيث تصطف أرفف الأرشيف المغلف، ضخمة، ترتفع كوحش عملاق، وتتداخل في متاهة كبيرة.

صُمم الأرشيف المغلف بطريقة تمنع الغرباء من الوصول إلى قلبه، حيث تقع المعلومات الأكثر أهمية وخطورة، لكني كنت أسبق عقولهم بخطوة، وما زلت أحتفظ بنسخة من خريطة المتاهة، التي درستها عندما كنت في فترتي التدريبية في الأرشيف، ولا أرغب في الحديث عن كيفية احتفاظي بهذه النسخة، لأنه ليس أمرًا مهمًا على أية حال، المهم أنني أمتلك وسيلة مساعدة.

كانت الأرفف مرقمة بأرقام لاتينية مذهبة، من الرقم واحد وحتى الرقم عشرين، مشيت في الممر الفاصل بين الرقم واحد والرقم اثنان، وبمجرد أن تعمقت أكثر، وجدت أن الأرفف أصبحت متعرجة، ومقسومة، فبعدما مشيت بمحاذاة العمود رقم واحد، وجدت نفسي أمام العمود رقم ثلاثة، وهنا تكمن الخدعة، إذا أردت الوصول إلى قلب المتاهة، يجب أن تتبع رقم واحدًا فقط وتبحث عنه كلما يختفي من طريقك، استغرقني البحث المتواصل عن رقم واحد القليل من الوقت، ربما لربع ساعة أو أكثر، قبل أن أصل أخيرًا إلى مساحة دائرية تحوي بداخلها عمودين مقوسين.

وقفت في منتصف الدائرة، وتفحصت الأرفف جيدًا، التي لم تكن تمتلك رموز ترقيم، وعناوينها كانت مشطوبة؛ لحجب موضوعها عن الدخلاء وتضليلهم.

كل الكتب كانت مجلدة بالأسود، ولم تكن مغلفة بالبلاستيك، وهو أمر استغربته، لكن لحسن الحظ لدي قفازاتي.

جررت السلم الصغير، واستخدمته للوصول إلى قمة العمود، وبدأت أفتح الكتب، وأقرأ عناوينها، الكثير منها كان يحكي عن تواريخ بعض العوائل، ونسب مفتشي الليل، الذين عملوا في المكان،

Visual Watermark

وقدموا إسهامات مقدرة، وكانت هناك كتب عن تاريخ عائلتي أيضًا، وإنجازاتهم، ودليل كتبته عمتي عن الوحوش الورقية، التي اكتشفوها وأنواعها، ورسومات بخط يدها، لأشكالها، وما تتغذى عليه من بؤس وألم وفوضى، وشعرت بحنين غريب لعمتي، وبفخر بما تمكن الرجال الأموات من تحقيقه، ثم اكتشفت كتابًا آخر كان محتواه هو الأهم بالنسبة لي، فقد تحدث عن الأخويات السرية، التي نشأت في عهد الوالي محمد سعيد، وذكر أن أكثر من خمسين أخوية سرية ظهرت بغرض التمرد على الوالي، ولزعزعة الاستقرار، مثلما أوضحت مقدمة مؤلف الكتاب المجهول، فلم يكتب اسمه على أي جزء في هذا الكتاب، لكن أكثر ما لفت انتباهي، هو أنه تحدث عن المنظمة الوحيدة، التي تمكنت من غرس جذورها عميقًا في المجتمع المصري، ووضعت سيفًا فوق رقبة الملك، الأبديين، وما تسبب لي اختلالًا في توازني حتى كدت أسقط، هي تلك الفقرة:

«كان الأبديين المنظمة المسؤولة عن إدخال الوباء لمصر، نتيجة تضحية محرمة بالسحر، والدم ولهيب الانتقام في القلب؛ لاستحضار قوة شريرة قديمة، يحمونها ويزودونها بما تحتاجه، وفي المقابل يحصلون على القوة والحماية، كانت سيدتهم تدعى حشمة الدار چان، التي عاشت لمائة عام».

جفلت وأنا أسمع صوت شخصين يتحدثان يقتربان مني، ورغم أني رغبت في الاحتفاظ بالكتاب معي؛ لأريه لمصطفى والدكتور، لكن هذا التصرف كان ليطيح بنا جميعًا ويكشف أثارنا، ولهذا كنت مضطرًا لإعادة الكتاب إلى مكانه، والخروج سريعًا من قلب المكتبة.

اختبأت لبعض الوقت خلف الأرفف؛ لأراقب إذا ما ظهر الرجلين، الذين يقتربان بخطواتهما من مكاني، فلست أدري أي مسار يتبعانه، ومن أين سيظهران، وحتى مع مجال الحرية المتاح لي، ما زلت متسللًا خلسة، ولقد سرقت خريطة سرية وصنعت منها نسخة، وكلها أشياء تدينني وتعرقلني عن الوصول إلى نهاية هذا الطريق.

كان أحد الرجلين هو السيد عطوان، رئيس الأرشيف، أما الرجل الآخر ذو البدلة الأنيقة والطربوش النظيف، فلم أستطع التعرف عليه، لكنه بدا لي كموظف حكومي رفيع المستوى.

استعدت أنفاسي بمجرد أن خطوت خارج السرداب المقيت المترب، وركضت عبر السلالم إلى الطوابق العلوية، وخرجت منها إلى الشارع؛ لأستخدم الهاتف، لدى عم عطية البقال، الذي يعتاش المتدربين في المديرية على مشروباته الباردة والساخنة والوجبات الخفيفة التي يقدمها.

استشعرت عدة ذكريات حزينة بمجرد أن لامس الهاتف وجهي، ذكريات مرت كومضات سريعة، حاولت تشتيت عقلي عنها، وذكرت نفسي أن المكالمة لن تطول لأكثر من ثوان معدودة، حيث سأخبر كلًا من الدكتور ومصطفى أن يجتمعا في منزلي الليلة؛ لمناقشة هذا الاكتشاف المهم، ثم سأعود لمكتبي حيث سأراقب الثواني والدقائق حتى موعد نهاية العمل.

في المساء، اجتمع ثلاثتنا في منزلي، حول الطاولة الصغيرة، مع ثلاثة أكواب أخرى من الشاي، وقد اشتريت دستة من الأكواب النظيفة المحترمة لتقديمها للضيوف، بدلًا من الأكواب القديمة غريبة الشكل، التي كنت أقدمها لهما، ثم أسرعت في إفراغ ما في جعبتي من معلومات.

-يعني كده بقى عندنا طرف خيط ندور منه.

هتف الدكتور متحمسًا، وقد أثارت حماسته استغرابي، فأي شيء هذا الذي قد يدعو للحماسة.

-معاك حق يا دكتور، دي معلومات هايلة.

وزاد تفاؤل مصطفى المعتاد من ابتهاج الدكتور، ومن امتعاضي.

-إيه الهايل في كده؟ دي حاجة تقلق، الناس دي موجودة من أيام أجدادنا، وقتلوا ناس كتير أوي، دول.. دول حتى هددوا الملك في قصره! الملك بجلالة قدره ولا قصره ولا حرسه قدروا يحموه، وإنتوا دلوقتي عاوزينا نروح ليهم برجلينا؟

استنكرت محتدًا.

Visual Watermark

-لا يا قاسم، إحنا مش هنروح ليهم برجلينا، محدش فينا بدأ سكة الدوامة دي، الناس دول هم اللي سحبوك وسحبونا من بعدك للطريق ده.

-وطالما حضرتك عارف كل ده يا دكتور، برضو مُصر إننا نكمل في الطريق ده لأخره؟

-العقل والمنطق بيقولوا كده، يمكن داوود اتاخد غدر، بس إحنا على الأقل قدامنا فرصة، على الأقل بنبص عليهم زي ما هم كمان ما بيبصوا علينا.

-مصطفى كلامه صح يا قاسم.

صرخت:

-يوه، هو حضرتك الدكتور بتاعي ولا الدكتور بتاعه؟

-أنا هنا مش الدكتور بتاعك، أنا هنا بصفتي صديق، شخص بيحاول يقدملك المساعدة والنصيحة.

-ونصيحة حضرتك إني أرمي بنفسي للنار؟

-لا، نصيحتي إنك تطلع نفسك من النار، وتطفيها، عشان لا تؤذينا ولا تؤذي غيرنا.

-يا سلام! وحضرتك فاكر إن الموضوع بالسهولة دي؟ كان غيرنا أشطر.

نهضت مبتعدًا عن الطاولة.

-أكيد مش هيكون سهل، بس إحنا عندنا أفضلية، إحنا نعرف اللي غلط فيه اللي سبقونا، ونجحوا في إيه، وكمان هما ميعرفوش إننا بندور وراهم.

حاول الدكتور إقناعي وتبرير موقفه، لكني اعترضت وارتفع صوتي:

-بالله عليك يا دكتور، إنت مصدق كلامك ده؟ دول ناس واصلة، هيكونوا مش عارفين إننا بننخور وراهم؟ وبعدين مين دول اللي سبقونا ونجحوا؟ محدش نجح في حاجة، لو كانوا نجحوا كان زمانهم عايشين دلوقتي عشان يحكوا قصتهم، دي خرافات يا دكتور، مفيش خير بينتصر في العالم ده، فيه واحد ذكي بس بيبعد عن الشر ويقني له.

-ده معناه إنك هتعمل نفسك مش واخد بالك إنهم بيلعبوا معاك؟

سأل مصطفى باستغراب.

-وفيها إيه؟ ما شوية وهيزهقوا مني، روحوا إنتوا بقى لاعبوهم، تموتوا ولا تعيشوا، إنتوا أحرار.

أوليتهم ظهري، وعضضت ظفر إبهامي، بينما نهض مصطفى هو الآخر ودفعني في كتفي غاضبًا:

-اللي بتعمله ده اسمه أنانية يا قاسم، مش بعد ما ورطتنا معاك تسيبنا وتمشي، إحنا الاتنين سيبنا مصالحنا وضحينا بحاجات مهمة عشان نطلعك من المشكلة اللي إنت حطيت نفسك فيها.

-أنا مطلبتش منكم مساعدة، إنتوا اللي اتدخلتوا ورميتوا نفسكم في النار، دي غلطتكم فمتجوش تحاسبوني عليها.

نظر لي مصطفى باحتقار وانزعاج، وهسهس:

-إحنا فعلًا غلطنا لما ساعدنا واحد ندل زيك.

وسحب محفظته وغادر الشقة، وبقيت أنا والدكتور ننظر لبعضنا بصمت، ولم أعرف إن كان يجدر بي قول شيء، شعرت أن عقلي نائم، لكني كنت متأكدًا من قراري ومنفعلًا بغضبي، ثم نهض الدكتور هو الآخر وغادر.

زفرت بانزعاج وركلت أحد كراسي السفرة، ففزعت نفيسة وانزوت في ركن الصالة، فتمالكت أعصابي وجلست على الأريكة، وبقيت جالسًا هناك لوقت طويل، حتى أذن الفجر في المذياع، لم أفكر في أي

Visual Watermark

شيء، لكني كنت حزينًا بشكل ما، أو ربما كان شعورًا آخر لم أستطع تسميته، لكني كنت واثقًا أنني اخترت الطريق الصحيح، على الأقل لن أعود منه متفحمًا في مشرحة.

***

-يا ماما وأنا ليه أروح معاها لبوتيك فساتين؟

استيقظت في الحادية عشرة والنصف صباحًا، على صوت هاتف المنزل، وكنت قد نسيت تمامًا. بشأن شجار الأمس، فناديت على الدكتور ومصطفى ليستيقظوا للحاق بأعمالهم، ثم ضربت عقلي الذكريات، فبقيت واقفًا لبرهة في منتصف الصالة أحدق ببلاهة حولي، وكان الهاتف قد توقف عن الرنين، وأنا ما زلت أحاول استيعاب الأمور الكثيرة، التي اندفعت إلى عيني كمشهد.

استغرق الهاتف بضع دقائق ليعاود الرنين مرة أخرى، وكنت متأهبًا للشجار إن اتضح أن المتصل هو الدكتور، لكنها كانت والدتي، التي أعطاها دكتور طه رقمي في خضم انهياراتي الأخيرة، لكنها اعطتني كلمة بعدم الزيارة بناء على تعليمات الدكتور، لكنها تعوض ذلك بمكالمتين في الأسبوع.

-إنتوا مخرجتوش من ساعة قراية الفاتحة، هتتعرفوا على بعض إمتى؟ البت هتطفش منك، دي هانم، لازم تتعلم إزاي تبقى چينتل وتعامل الهوانم بشكل حلو وراقي.

تبرمت نصف نائم.

-وإيه دخل ده بس في إني أروح معاها لبوتيك؟

-عشان تدفع فلوس الفستان، مينفعش الزوجة أبدًا تدفع والزوج واقف.

-يا ماما أنا لسه مقبضتش ومرتبي مخصوم مني لخمسين سنة، وبعدين مش إن العريس يشوف فستان عروسته ده فآل وحش؟

سمعت صوت تيتة الغاضب وهي تسحب السماعة من يد والدتي:

-هاتي يا نجوى، الولد ده هيجننا، اسمع يا قاسم، عارف لو مروحتش مع خطيبتك أنا هعمل فيك إيه؟

-إيه؟

تساءلت بلا مبالاة فإني أعرف جيدًا أن جدتي لا تقوى على عقابي.

-هبلغ عنك لمجلس العموم وهقول إنك بتهرب من أداء مهامك كفرد من عيلة الدالي.

«حتى حضرتك يا تيتة؟» فكرت بحسرة وأنا أغلق المكالمة، بعدما اضطررت للموافقة على طلبات والدتي وجدتي بالإكراه.

ارتديت البدلة البنية الجديدة، بما أنها كانت البدلة النظيفة الوحيدة في خزانتي، وصففت شعري والضيق يقطر من وجهي.

بقيت نفيسة تدور حول قدمي، قبل أن تقفز فوق التسريحة، وجلست جلستها المفضلة، ثم رفعت رأسها وبقيت صامتةً، فمازحتها:

-إيه يا نفيسة؟ شكلي وحش ولا إيه؟

أصدرت نفيسة صوت مواء، فقلت:

-أنا كنت عارف إنك الوحيدة اللي هتحسي بيا، شايفة بيعملوا فيا إيه على وش الصبح؟

ارتديت قفازاتي الجلدية، وتأكدت أنه لا توجد أجزاء مكشوفة من جلدي يمكنها أن تصيبني بنوبة من الهلوسة في الطريق، الطقس أصبح يميل للدفء في الأيام الأخيرة، فتخليت عن معطفي المعتاد.

-إيه رأيك، مش آخر شياكة؟

Visual Watermark

استعرضت ملابسي أمام نفيسة، فأصدرت صوت مواء، وهي تتحرك يمنة ويسرة لتراني جيدًا، فربتت على رأسها.

-متخافيش، ولا حتى فريدة هانم هتقدر تخطفك من قلبي.

حملتها بذراعي، وأنا أنهي ارتداء حذائي:

-هسيبك النهاردة مع تيتة علياء، متوسخيلهاش البيت.

كانت السيدة علياء هي صاحبة العقار، الذي أسكن فيه، تعتبر نفيسة بمثابة حفيدتها، وتؤنس بها وحدتها مثلي، ويرتاح قلبي عندما أترك نفيسة معها عندما أهب للعمل.

غادرت العمارة، بعدما ودعت نفيسة وتركت لها ألعابها مع السيدة علياء، وانعطفت يمينًا لأخرج من الحي، وواصلت المسير حتى وصلت إلى شوارع عين شمس الرئيسية، حيث سأركب سيارة أجرة وأذهب؛ لاصطحاب خطيبتي فريدة هانم، حيث تسكن في قصر والدها العالي في المَنيَل.(15)

كانت فريدة متفاجئة للغاية وهي تراني أقف في حديقة القصر، بعدما أخبرتها الخادمة بوجودي، فهبطت ركضًا:

-قاسم؟ إيه سر الزيارة الغريبة دي؟

-أصلي هطلع مأمورية آخر الشهر تبع الشغل، وممكن معرفش أشوفك قبل معاد الخطوبة، عشان كده جيت أخدك عشان نشتري سوا الفستان.

«يا ترى روح الراجل النبيل دي خرجت إزاي؟»

ضحكت فريدة، وقالت:

-يبقى أكيد طنط اللي قالتلك تيجي.

ارتبكت محاولًا تصحيح هذا المفهوم الخاطئ، الذي يُوشك أن يرتبط بي:

-أنتِ ليه متخيلة دايمًا إني إنسان جلنف؟

ضحكت مرةً أخرى، وكان ذلك ردًا كافيًا:

-على العموم، جيت في الوقت المناسب، أنا كنت لسه هخرج حالًا.

جذبتني من ذراعي لنتحرك نحو بوابة القصر، فأوقفتها، قائلًا:

-هنمشي من غير ما نسلم على أهلك؟

-بابا سافر بني سويف من بدري، عشان المزرعة بتاعتنا، وماما مبتحبش حد يكلمها غير بعد ساعتين من شرب قهوتها، وإحنا راجعين تقدر تسلم عليها.

-أكيد.

أرادت فريدة أن نركب في سيارة والدها مع سائقهم الخاص، لكني لم أكن زوج الست؛ لأسمح لنفسي بتوصيل نفسي على نفقة والد خطيبتي؛ لذلك تصرفت كرجل نبيل، وركبنا سيارة أجرة، نقلتنا من المَنيل إلى بوتيك مدام عفت في وسط البلد، مقابل مبلغ محترم، جنيه فضة.

بعدما اضطررنا لإلغاء العملة الورقية؛ باعتبارها أسرع وسيلة لانتقال العدوى، ظهر لدينا نوعين جديدين من العملة، الجنيه الفضة والجنيه الذهب، يُطبع على كل جنية القيمة، التي يمثلها، فهناك جنيه العشرة جنيهات، جنيه المائة جنيه، وهكذا.

تستخدم الفضة في أسعار السلع الغذائية وأجرة التاكسي، خاصة وأن سيارات الأجرة يخشون التعرض للسرقة إذا ما حملوا جنيهات ذهبية.

Visual Watermark

يستخدم الجنيه الذهب في المعاملات الحكومية، وفي المهور، فقد كان مهر والدتي ثلاثة جنيهات ذهب من فئة المائة جنيه، يستخدم الجنيه الذهب أيضًا في شراء سلع النبلاء، وخاصةً المجوهرات والأقمشة والبخور، وفي التجارة الدولية، وهو ما تقبله الدول الأخرى دون أي انزعاج، فطالما الأمر بعيدًا عن الورق فكل شيء مقبول، كما أن كل شحنة تجارية تغادر الأراضي المصرية تعبر أسفل يدي مفتش ليل خبير، للتأكد من سلامتها، وظيفة مرموقة وذات أجر مرتفع، لكنها حساسة ومليئة بالضغط، أتمنى أن لا أعمل بها أبدًا، فبالمقارنة مع الجثث والمخدرات، أفضل التعامل مع الجثث والمخدرات بدلًا من شحنات التجارة؛ لأنني إن تركت شحنة مصابة تمر، فسوف أفقد رأسي وكل شخص له علاقة بي من قريب أو من بعيد.

توقف سائق الأجرة أمام بوتيك مدام عفت، تناديها الفتيات بأبلة عفت ويعتبرونها بوابة لتحقيق أحلامهن بالزواج بفتى الأحلام، فتأتي النبيلات والهوانم إليها في كل المناسبات المهمة؛ لاختيار ملابس قادرة على خطف قلب العريس المنشود.

مدام عفت هي أرملة موظف ذائع الصيت في مديرية مفتشي الليل، لم يكن مفتشًا مثلي، لكنه كان مسؤول المالية في المديرية، الشخص، الذي يُسلمنا رواتبنا.

دام زواجهما أكثر من زواج والديها، حيث انفصل والدها المصري عن والدتها الشركسية وهي طفلة في الخامسة، وبقيت طوال حياتها تحت يد والدتها، حيث علمتها الأصول الشركسية، بينما علمتها المدرسة الأصول المصرية، فخرجت بهذا الخليط الجذاب الراقي، ورغم عرق والدتها إلا أن مدام عفت خرجت بملامح مصرية بالكامل.

تغطي واجهة المتجر الزجاجية عدة مجسمات لعرائس ترتدي الفساتين الملونة على خلفية من ستار سكري ثقيل، أما لوحة البوتيك فترتفع أعلى المتجر مكتوبة بخط بارز منحوت بالعربية والإنجليزية (بوتيك أبلة عفت).

لمعت عينا فريدة كما لم أراها من قبل، وهي تنظر إلى فساتين العرض، بينما تسلل إلى داخلي الخوف رويدًا رويدًا، بشكل طردي مع كل نظرة لفستان جديد، فأنا لا أعرف ما وضع الأسعار هنا، ومؤكد ستكون غالية، فهذا مكان للأميرات والهوانم كفريدة.

دفعت فريدة باب المتجر فرن الجرس المعلق أعلى الباب وأعادني للواقع فتبعتها في وجل بعدما مسدت بكفي على جيب بدلتي، اعتقد اني سأفقد مدخراتي.

كان الوضع داخل البوتيك هادئًا، مع رائحة أزهار البرتقال والياسمين حديثة القطف.

ينقسم البوتيك لقسمين، قسم يقع عند الباب، حيث توجد مقاعد وطاولات صغيرة للجلوس عليها في وقت الانتظار مع مكان لشرب القهوة، أما القسم الثاني فكان للفساتين، معلقين على مجسمات عرض أو متراصين على الحامل المعدني، مع غرف القياس.

خرجت علينا فتاة صغيرة السن، ترتدي زيًا رسميًا يحمل بروش المتجر، وقادتنا بابتسامة لأحد الطاولات لننتظر قدوم مدام عفت، وراحت تسجل بعض البيانات الغريبة، كتاريخ حفل الخطوبة، وموعدها في الصباح أو المساء، والألوان المفضلة لدى فريدة، وإن كان لديها تصور حول شكل الفستان، الذي ترغب في ارتدائه، ومكان انعقاد الحفل وعدد الحضور.

دونت كل الإجابات في مذكرتها الصغيرة، وسألتنا إن كنا نرغب في شرب شيء ما لكننا رفضنا، ثم غادرت المكان واختفت في أعماق القسم الثاني، فنظرت لفريدة وسألتها:

-هو إيه الأسئلة الغريبة دي؟

-عشان تساعدني أختار الفستان المناسب ليا، بجد المكان هنا راقي بشكل.

-اه.

قلت وأنا أتأمل زخارف السقف ولا أفهم أي شيء من هذا.

Visual Watermark

-قاسم الدالي، مش كده؟

أخفضت عيني نحو مصدر الصوت، الذي ظهر حولنا فجأة، كانت سيدة خمسينية، لديها شعر رمادي مصفف في كعكة، ووجه بشوش هادئ.

نهضت أحييها:

-حضرتك تعرفيني؟

ابتسمت ابتسامة هادئة، وجلست على الكرسي الثالث على طاولتنا:

-وهو فيه حد ميعرفش عيلة الدالي؟

أشارت لي بالجلوس، ففعلت، بينما أكملت حديثها ببشاشة:

-عمتك ناهد كانت صاحبتي.

-صاحبتك؟

صحيح أني لا أعرف سوى جزء صغير من تاريخ العائلة، إلا أن حقيقة صداقة مدام عفت لعمتي لهو شيء كبير.

-إيوة، هي أول حد ساعدني في افتتاح البوتيك ده، وأظن جه الوقت أرد جميلها وأساعد عروستك الحلوة تلاقي أجمل فستان في المعمورة لخطوبتها.

ابتسمت فريدة، ونظرت إلي، تتآكلها الحماسة، وبدت وكأنها لا تصدق ما تسمعه من إطراء ومجاملات من مدام عفت، وشعرت بنفسي كمخلوق غريب يحل ضيفًا على مدينة لا تلائمه، لكنهم مضطرون لاستقباله؛ لذلك اختفيت في كرسيي، وتركت فريدة ومدام عفت يخوضان حوارهما الخاص، وينطلقان في رحلتهما المنشودة؛ لإيجاد فستان خطوبة فريدة الصواف.

اسم عائلة الصوّاف أشبه بلزمة يعاني منها كل المصريين، فنحن لا نتوقف عن رؤية إنجازاتهم وأخبارهم كل يوم في الصحف، أو نستمع إليها في المذياع، وهي عائلة مشرفة للغاية، ولأي شخص؛ لتربطه بهم علاقة مصاهرة، وكان ليصبح أي شاب مكاني في غاية السعادة والافتخار، لكني لم أمر بأي من تلك المشاعر، بل شعرت أكثر، أنني في المكان الخطأ، وفي العلاقة الخطأ، ففريدة فتاة مذهلة، لها شخصية حرة منطلقة، وهي دائمًا مبتهجة وسعيدة، ولها صوت مرتفع وشخصية قيادية، والجميع يستمع لرأيها، ولديها والدان، وهي طبيبة، وتخرجت من السوربون، وأنقذتني مرتين، وبدا الأمر لي، أني آخذ أكثر مما أعطي، وذلك أشعرني بالاشمئزاز، نحن لسنا متكافئين، إني مريض نفسي، ولدي عقل خارج عن المألوف، وخارج عن كل قانون، ولا يستمع لأي صوت، حتى صوت مالكه، ولدي عائلة ذات خلفية مأساوية، ولم أتخرج من جامعة شهيرة، أو في تخصص مرغوب، إني مجرد فتى أنهي دراسته في كلية علوم قديمة بتقدير جيد، ويعيش مع قطة عرجاء، ويكسب عشرة جنيهات وخمسون قرشًا في الشهر، وبعد الترقية سيصبحون خمسة عشرة جنيهًا في الشهر، ولم أرث عن والدي سوى لقب قديم كباشا، ومهنة كئيبة، يصاحبها الموت أينما سارت، وكانت هذه أصفى لحظات عقلي، وأغربها.

هل يمكن أن أفسخ خطبتي مع فريدة في بوتيك أبلة عفت؟ وأحول بوتيك الأحلام الشهير لمقبرة مشؤمة؟ هل سأتمكن من إقناع والدتي وجدتي بالزواج من فتاة تشبهني أكثر؟ كانت تلك فكرة أنانية أكثر من اللازم، فالجميع في المنزل قد أعاد هيكلة حياته حول حقيقة أنني على وشك الزواج، وقد بدؤوا جميعًا في الاستعداد.

-تحب تشرب حاجة؟

جفلت عندما داهمني صوت مدام عفت، ونظرت لوجهها ولم أعرفها، ومرت وهلة؛ حتى استعدت إدراكي وتركيزي.

Visual Watermark

-تحب تشرب حاجة؟

أعادت مدام عفت سؤالها.

-متشكر.

-شكلك بتدور على حاجة.

جلست إلى الكرسي المقابل لي.

-خالص، أنا بدلتي جاهزة، نعوضها في بدلة الفرح بقى.

قلت بنبرة مرحة، لكن النظرة الجادة على وجهها لم تختفي، وهكذا اختفت، أيضًا، البهجة الزائفة من وجهي.

-بس أنا مكونتش بتكلم على الطقم.

ازدرت لعابي، ولم أفهم لماذا أشعرتني نبرتها الغامضة بالتوتر، من الواضح أن نومي المتقطع للفترة الماضية يؤثر على حكمي، ويتركني أتوهم أمورًا وأنخرط في نظريات المؤامرة.

-وهكون بدور على إيه تاني غير البدلة؟

حاولت إضافة السخرية لحديثي، لكنه بدت كصوت فيل يحتضر، مع ضحكة مكتومة أشبه بالسعال.

-إنتَ أدرى، على العموم، عمتك ساعدتني كتير وليها أفضال عليا، وعندي متسع من الوقت إني أفسرلك الحلم اللي شاغلك.

-داوود.

صوت صراخ مفزع اخترق أذني، صوت صراخ حي وواضح، جعلني أهب واقفًا أتلفت حولي في المكان.

-إنتَ كويس؟

سألتني مدام عفت بقلق واستغراب، وشعرت بالعار والإحراج، عقلي يلاعبني بدناءة.

لم أستطع أن أخبرها أي شيء، أو أن أسألها عن صوت المرأة، التي صرخت، إن كانت قد سمعته هي الأخرى؛ لأن فريدة كانت قد خرجت من غرفة القياس، في فستان أنيق، وتنتظر ردة فعلي، لكن عقلي لا يعمل، وكأن شخصًا ما قد ضغط على زر الإطفاء.

شيء ما مفقود، لكني بحاجة لإبداء رد فعل، وأنا بحاجة لإنجاح هذه العلاقة؛ لأن عائلتي تعتمد علي.

-طالعة زي القمر يا فريدة.

تدخلت مدام عفت؛ لتفصل بين النظرات الحائرة والنظرات المنتظرة، بيني وبين فريدة، وسحبت فريدة من ذراعها نحو المرآة تفسح لها مجالًا؛ لتتأمل نفسها، لكن عيون فريدة بقيت معلقة علي، وكأنها تستجديني أو تعطيني فرصة أخيرة؛ لإنجاح كل شيء.

مسحت وجهي بكفي، واستنشقت الهواء عميقًا داخل رئتي، ثم تحركت نحو المرآة، قالت مدام عفت ببهجة:

-اقف جنب عروستك، ولو إن ناقصاك البدلة.

ولم أفهم إن كانت تعني البدلة حقًا، أم تعني تساؤلاتي غير المجابة.

-إيه رأيك يا قاسم؟

فريدة تسألني بترقب.

Visual Watermark

-تجنني، ده.. إنت خلتيني.. أفقد النطق.

تلألأت عينيها بشكل براق، رغم أني لم أكن أعرف حقًا ما الذي أقوله.

-بجد؟ يعني أشتريه؟

-المهم تكوني مرتاحة فيه.

أعطيت إجابات دبلوماسية، فنطقت بحماسة:

-طبعًا، ده فستان أحلامي.

ووجهت حديثها لمدام عفت:

-ميرسي أوي يا أبلة عفت.

-يا حبيبتي، إنت اللي محلية الفستان.

-عن إذنك يا قاسم.

تركتني فريدة وتحركت عائدة إلى غرفة القياس، وبمجرد أن اختفت خلف بابها، التفت إلى مدام عفت:

-حضرتك سمعتي الصوت ده؟

لا أدري لماذا سألتها، ربما كان ذلك الإلحاح لأعرف، على الأقل، أن عقلي ما زال بخير، أو في حال أقل سوء مما هو عليه، لكن وكما توقعت، سألت مدام عفت باستغراب:

-صوت إيه؟

وفجأة أصبحت ملزمًا بإعطاء تفسير.

-صوت.. الست اللي كانت.. بتصوت.

مع ردة فعل مدام عفت، شعرت أكثر أني مجنون، وأن سؤالي كان ضربًا من البَلَه.

-مفيش صوت حد تاني غيرنا هنا.

-خالص؟

سألت بشك، لكن مدام عفت أبقت على موقفها.

-خالص.

رفعت حاجبيها باستغراب وهي تجيب أسئلتي، فصمت قليلًا قبل أن أطلب دفع الحساب؛ فقد انتابتني رغبة ملحة ومنطقية للخروج من هذا المكان الخانق، الذي يرى جنوني كما لو كنت فوق مسرح.

أخبرتني البائعة وهي تغلف لي الفستان:

-مستنيين نشوفك المرة الجاية.

أشعرتني كلماتها بالسخرية مبطنة، وكأنهم واثقين من أني سأعود؛ لأني مجنون.

عندما ركبنا سيارة أجرة أخرى لطريق العودة، سألتني فريدة إن كنت بخير، وإن كنت بحاجة للراحة أو الذهاب إلى الطبيب، وبدت قلقة للغاية، وربما مستاءة، من المفترض أن يكون موعد اليوم جميلًا، لكنني أفسدته، ولطخته بدمائي، وأملت لو تصدق أمي أنني شخص لا يصلح للزواج.

أوصلت فريدة إلى بيتها وحاولت أن أبدو ودودًا قليلًا وأنا أودعها امام بوابة منزلها، ولا أعرف إن وُفِقت أم لا، ثم تمشيت في الحارات والشوارع، حتى وصلت إلى الكورنيش، الذي اكتظ بالمتزوجين

Visual Watermark

والعائلات، التي تتناول الترمس والحمص وتتساهر، يتمازحون، ويتشاجرون ويعودون فيتصافون، وشعرت بنفسي بينهم وحيدًا، ذلك الآتي من دماء تعيسة.

تمنيت أن أكون كعمتي، فخورًا بعائلتي، فخورًا بأناملي وبالهبة، التي وُلدت بها، وأن أكون شغوفًا بتقديم المساعدة لشعبي، وأن أكون مغرمًا بركوب المخاطر، وأن أتحدى الأمواج، لكني وُلدت بذهن غير رائق، وكفين ملعونين بألا يخرجا إلى الضوء والهواء.

بقيت واقفًا أمام النيل، حتى سمعت صافرات إنذار تدوي قُرب حلول وقت حظر التجوال فانطلقت مع الجموع، التي تسير في الشوارع مندفعة لإيقاف أية وسيلة نقل؛ فتعيدها إلى منزلها، أغلبهم يهربون، لا لأنهم يخشون الغرامة، التي سيدفعونها إن خرقوا القانون، بل لأنهم يريدون الحفاظ على حياتهم من بطش الليل، لكني وُلدت في الليل، أنا لا أهرب منه؛ لأنه يركض ورائي.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

مضى قرابة شهر هادئ مليء بالوحدة، وانتهى مارس وكاد ينتهي أبريل، ولم أرى مصطفى والدكتور مرة أخرى، ولم يحاول أي طرف فينا معاودة التواصل مع الأخرين، واعتبرت أن هذا هو نظام حياتي الجديد واعتدت عليه، مثلما اعتدت أيضًا على عملي وأصبحت أؤديه بسلاسة تزداد يومًا بعد يوم، كما أصبحت مخطوبًا رسميًا منذ نهاية مارس، وأدخلت حالتي الاجتماعية الجديدة الكثير من السعادة والنور إلى منزل العائلة في شارع سليمان باشا، والدتي سعيدة، جدتي سعيدة وكذلك أختي، وقد انطلقن في رحلة وصفوها بالهامة والمفصلية في تاريخ العائلة؛ لاختيار أثاث المنزل والمساعدة في تجهيز الشقة، التي سأتزوج فيها، فقد قررت تيتة أنني وفريدة، سنعيش في الشقة المقابلة لمنزل العائلة، ووافق السيد سامي الصوّاف، حمايا، على قرار تيتة، وجاءت عائلته لمعاينة المكان وإبداء رأيهم فيه والتغييرات، التي سنجريها عليه، على أن يكون الزفاف خلال ربيع العام القادم.

أما بالنسبة لأخر أخبار حالتي العقلية، فعقلي هادئ مؤخرًا على غير العادة، لا أحلام مزعجة، لا هلاوس غريبة، ولا أشياء أخرى غير طبيعية، ولا أحاديث مريبة حول الأبديون والمنظمات السرية، يرى الجميع أنني أمر بفترة ذهبية في حياتي، رغم أني أشعر أنها مجرد فترة من الهدوء، الذي يسبق العاصفة، وبات هدفي هذه الأيام، أن أكتسب طاقة كبيرة من روتيني اليومي الهادئ، والسلام، الذي يغلف حياتي كقشرة بيض؛ لأكون مستعدًا لمواجهة أيًا كان ما سيأتي عندما ينهار حائطي وتزأر من خلفه العاصفة.

عدت إلى منزلي في عين شمس بسيارة المديرية، وبمجرد أن هبطت من السيارة، ظهر في وجهي الطفل علام، فتى في المرحلة الإعدادية، قصير لكنه يمتلك بالًا طويلًا، وشخصية شجاعة، مرح وقيادي، ويترك أثرًا طيبًا في نفوس الجميع، انتقل مع عائلته منذ ثلاثة أسابيع، وقد اعتاد على الشارع منذ الساعات الأولى، وأعطاه روحًا نشطة وصاخبة بعد أن كان ساكنًا ميتًا، خاصة بشجاراته مع أخويه الصغيرين، منال وياسر، أما حلم حياته الكبير فهو أن يكبر ليصبح مفتش ليل، وقد اتخذني كقدوته منذ أن عرف أني مفتش ليل، لكني آمل ألا يصبح مثلي في أي شيء.

-كويس إنك جيت بدري النهاردة.

-اشمعنى؟ كنت قاعد مستنيني؟

-إيوة، ده أنا قاعد في البلكونة من الصبح مستنيك تيجي، ما أنا بقى صحيت متأخر وملحقتكش قبل ما تنزل.

رفعت حاجباي مستغربًا:

-للدرجادي الموضوع مهم؟

فهز علام رأسه مؤكدًا:

-جدًا، جدًا.

-طب قول يا سيدي، أنا سامعك أهو.

فمد كفه إلي، قائلًا:

إيدك على بريزة(16).

-بريزة مرة واحدة! ليه يا سي علام؟

-رمضان قرب(17)، كل سنة وإنت طيب، عايزين نزين الشارع.

-تزينوا الشارع؟

لم أسمع هذه الجملة منذ فترة طويلة.

Visual Watermark

-إيوة، وخد بالك، كل الجيران دفعوا، ناقص حضرتك، ولو ما إديتناش البريزة الشارع بتاعنا هيخسر.

-هيخسر! هيخسر إيه؟

-في المسابقة، ما إحنا عملنا مسابقة مع الشارع اللي جنبنا.

-لا طالما في مسابقة، يبقى لازم نكسب طبعًا.

فتشت في جيوبي على بريزة، ثم قدمتها له:

-امسك يا سيدي، عايزين شغل نضيف بقى.

رفع رأسه وتحدث بثقة:

-عيب عليك، وهو أنا هجيب للشارع بتاعنا حاجة مش قد المقام؟ إحنا بس هنحتاجك تيجي تعلق معانا الزينة عشان إنت طويل وصحتك حلوة، كل اللي هنا مفاصلهم وجعاهم.

أضحكتني كلماته، وتمنيت لو أمتلك ابنًا يشبه علام في المستقبل، أمنية فاجأتني.

-ماشي يا سيدي هاجي أعلق الزينة معاكم.

صاح علام «هيه» وشكرني على إسهامي في مسابقة الحي، ثم انطلق إلى منزله في العمارة المقابلة لي، عندما سمع صافرات الإنذار.

كان علام وإخوته الصغار مصدر بهجة وحيوية لشارعنا، وبطريقة ما ملئوا كل شعور بالوحدة بداخلي، وقد أحبوا اللعب مع نفيسة وأحبت نفيسة اللعب معهم، وقرروا الاحتفال بها عندما تكمل السنة، وسيشترون من أجلها دجاجة من مصروفهم، وقد بدؤوا الادخار على قدم وساق منذ أسبوع؛ ليتمكنوا من شراء الدجاجة بحلول الشهر القادم.

حصلت على نفيسة من صاحبة العقار، وعدت إلى منزلي وأنا أدندن بأغنية، وفكرت أن أزور دار الأوبرا في الأزبكية في أجازة نهاية الأسبوع، وربما أشتري تذكرتين، وأعزم فريدة أيضًا، فكلانا نحب الحفلات الأوبرالية، ودخلت إلى منزلي رائق البال لأول مرة منذ سنوات بعيدة، حتى نفيسة دخلت المنزل ركضًا، وبقيت تلعب في الكرة المطاطية، التي اشتريتها لها لتسليها.

تناولت غداء خفيفًا، ووضعت المزيد من المياه والطعام لنفيسة إن جاعت أو عطشت وأنا نائم، ثم استمعت إلى الراديو قليلًا وصليت المغرب، ثم سقطت نائمًا على الأريكة، فقد كان العمل مرهقًا اليوم، وصعدت وهبطت لعشرين مرة.

كانت السماء مظلمة فوق رأسي، وكنت أهرب من شيء ما، أو شخص ما، فلم أرى ما كنت أهرب منه، لكني امتلأت بشعور من الخوف والذعر، ودخلت إلى أول مكان رأيته، كان قصرًا بهيًا، رغم أن بوابته لم تكن مغلقة تمامًا، وبمجرد أن دخلت إليه أُغلقت بوابته بالكامل، ورغم أن الأمر أثار استغرابي، لكني شعرت بالراحة لكوني في الداخل لا في الخارج، بعيدًا عن الخطر.

كان القصر مظلمًا أكثر من الظلام في الخارج، وساكنًا كسكون نائم، وشعرت بالطمأنينة وأنا أتجول في بهوه، وألمس مقتنياته وأثاثه المبهر والأنيق، دون حائل، وشعرت أن أصابعي تتنفس، ثم أضاء المكان فجأة، وكأنما انفجرت فيه شعلة من اللهب، كان الضوء يخرج من المطبخ، مهزوزًا، برتقاليًا لامعًا، تحركت نحوه لأرى مصدره بوضوح، لكن صراخ شديد قادم من الطابق العلوي أوقفني، وعندما تكرر الصراخ ثانيةً، قفزت عبر درجات السلم؛ لأحاول إنقاذ الشخص الذي يصرخ طلبًا للنجدة، وقد استغربت من نفسي، فلست من النوع، الذي سيقدم على أي تصرف بطولي دون قفازاته، أو تصرف بطولي أصلا، لكني شعرت كما لو كنت مدفوعًا نحو كل تصرف، وكأنني مساق.

كان الطابق الثاني يشتعل، ولم أستطع تخمين مصدر الحريق، فالنار كانت في كل مكان.

-اجري يا هانم، اجري.

Visual Watermark

خرج صوت مرتاع من ممر جانبي في الطابق الثاني، فتتبعت مصدر الصوت وأنا أضع كمي على أنفي؛ لأمنع الدخان من التدفق إلى رئتي.

كان الممر ضيقًا، وممتلئًا بالكثير من الأشياء القابلة للاشتعال، أشياء ذابت ولم تعد ماهيتها واضحة، ومن وسط الدخان كانت هناك امرأة تركض وتتعثر وتلهث، لا تعرف كيف تخرج، وتبدو وكأنها فقدت شيئًا ما، ثم نظرت نحوي، نظرت في عيناي، ظننتها ستصرخ «داوود» مثلما رأيت في حلمي سابقًا، لكن صراخاتها وحروفها كانت مختلفة:

-علام.

لماذا تصرخ باسم علام في حلمي، ركض شخص ما من جواري، بدا لي مألوفًا، وبدت كل الأصوات من حولي وكأنها ضخمة وبعيدة، كصوت وحش:

-الحقونا يا ناس، الحقنا يا باشا.

ثم تغير المشهد، واختفى القصر، واختفى داوود وزوجته، والممر الضيق، وكنت في الشارع، أقف أمام منزل أسرة علام، والنيران تتساقط منه، وتلتهمه وتبصقه، والناس يركضون من حولي، يصرخون ويتبادلون السطول والجرادل المعبئة بالماء، علهم يتمكنون من إنقاذ أي شيء ريثما تصل سيارات المطافي، المؤمنة بحرس الليل.

انتفض جسدي فجأة، وكأني تمثال قد دبت فيه الحياة، ولهثت وخرج سخام أسود من أنفي لم أعرف من أين جاء رغم أني كنت بعيدًا عن المبنى المشتعل، فمسحته والتفت يمينًا ويسارًا وبدأت أستوعب المشهد الناري حول.

-يالهوي، الحقوا ابني يا ناس، ابني علام لسه جوه.

صرخت والدة علام في حضن إحدى الجارات، ولطمت وجهها، حاول الناس أن يقنعوها وزوجها من أن الدخول إلى العقار الآن هو انتحار، لكنهما بقيا يحاولان الدخول رغم منع الجيران لهما.

كان أخوي علام الصغيرين يمسكان ببعضهما ويرتجفان، وتراكض رجال من الشوارع المحيطة بأوانيهم المنزلية الممتلئة بالماء؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

نظرت إلى الجمع وبدوت غريبًا وسط الحشد، كرجل رأسه طويلة، ثم استغرقني الأمر لحظة قبل أن أقفز داخل العقار المشتعل.

كان المنزل يتهاوى، وكانت شقة عائلة علام في الطابق الثاني، فدخلت إلى الطابق الأول، الذي كان بابه مفتوحًا، والأضرار فيه أقل، وسحبت مفرش السفرة، وغمسته جيدًا في مياه حوض المطبخ، ولففته حول رأسي وكتفي، وركضت نحو الطابق الثاني في خطوات سريعة، وتجنبت الخشب المشتعل، الذي يهطل فوق رأسي.

كان باب الشقة مفتوحًا، والنيران كانت هي المشهد الرئيسي بداخلها، تراجعت عدة مرات عن الدخول، بسبب حرارة الأرض اللاهبة، وأدركت أني أرتدي نعالًا مفتوحة، لا حذائي، وأن يداي عاريتان، وتساءلت مرة أخرى كيف وصلت إلى الشارع بهذه الهيئة، ثم قفزت داخل المنزل، وصرخت بأعلى صوتي:

-علام، يا علام، إنتَ سامعني؟

تحركت بحذر داخل الشقة، وأنا أنظر في الأرجاء، وصرخت ثانية:

-لو سامعني رد عشان ألاقيك.

بقي الصمت مخيمًا على المكان لفترة، ثم خرج صوت علام مفزوعًا مستنجدًا:

-أنا هنا في الأوضة، إلحقني يا أبيه.

Visual Watermark

-أنا جايلك، أنا جايلك متخافش.

ركضت نحو مصدر الصوت، غرفة في الزاوية، بابها نصف مغلق، أمسكت بمقبض الباب بسرعة، لكنه كان ساخنًا جدًا، فسحبت يدي، نظرت إلى كفي فوجدته قد تحول إلى اللون الأحمر، فلففت القماش المبلل فوقها واندفعت إلى الغرفة.

علام ممدد على الأرض، وسط الدم والنار، وشخص ملثم ظهر كشبح وسط الركام والدخان نظر إلي، ثم قفز من النافذة قبل أن أدرك ما يحدث، وبقيت فكرة واحدة في عقلي، علام ميت.

كتب و روايات عربية و عالمية
https://t.me/riwayat2025
Visual Watermark

دفنة علام كانت بالأمس، من المفترض أنها كانت بالأمس، لكني تدخلت لإيقافها.

حصل علام على تشريح للجثة، بعدما أقنعت والديه بما رأيته، وكانت نتيجة التشريح أن علام مات نتيجة طعنة نافذة في الصدر، وليس بسبب الحريق، ذلك الحريق المشكوك في أمره.

أردت تحويل القضية من وحدة الجنايات إلى وحدة مفتشي الليل؛ أردت متابعتها بنفسي، وأن أجد ذلك القاتل بنفسي، لكن طلبي رُفض، فليس من الواضح أن المتسبب بالجريمة هو شخص يعاني من حالة تلبس، فلا أثر حراري، أو بقع ظلية عالقة في مكان الحادث.

تركت شقتي الصغيرة لعائلة علام؛ لإقامة سرادق العزاء، عندما نتسلم جثته اليوم، ما زلت لا أصدق أيًا من ذلك، وأخشى أن أكون متورطًا في الأمر بطريقة أو بأخرى، فلست أدري كيف تداخل حلمي مع الواقع لهذه الدرجة، وتذكرت ما رأيته في قصر الباشا، رغم أن ما حدث في منزل علام أكثر سوء وغرابة.

عاد الشارع كئيبًا ميتًا مرة أخرى، وبكى الجميع على علام؛ لأنهم اعتبروه بمثابة ابن وحفيد، وأردت أن أبكي أيضًا، لكني لم أستطيع، رغم أني توقفت عن النوم وحزنت عليه بطريقتي الخاصة.

السرادق سيقام بعد صلاة العصر، ثم ستعود العائلة إلى البنسيون، الذي يقيمون فيه مؤقتًا، عرضت عليهم المبيت في شقتي وأن أعود لمنزل عائلتي، لكنهم رفضوا، ولم أتمكن من تقديم الكثير لهم، سوى سيارة مؤمنة بحرس ليل من المديرية؛ لتعيدهم إلى البنسيون بعد نهاية العزاء.

جلست أمام المشرحة في انتظار وصول عائلة علام، بينما ينهي العاملين تغسيله وتكفينه، لم أرد أن أتذكر هيئته الأخيرة، وجهه الشاحب، وجلده البارد وعلامة الإكس المخاطة بخيوط سوداء على صدره، أردت أن أتذكر وجهه البشوش، وصوته السعيد لا المرعوب، وأحلامه الحية لا الميتة، ثم ظل شيء واحد يزعجني، شيء واحد لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه، أن ذلك القاتل كان ينتظرني، كان يريدني أن أراه يقتل علام، كان يستهدفني وعلام ضرر جانبي.

-أستاذ قاسم، إحنا خلصنا، هتستلمه دلوقتي؟

خرج عامل المشرحة الثلاثيني، وحاول أن يكون لبقًا قدر المستطاع.

-خمس دقايق بس، أهله على وصول.

-طيب، ربنا يكون في العون، شد حيلك.

-ونعم بالله، متشكر.

غادر عامل المشرحة، وبقيت أحدق في الساعة المعلقة على الجدار المقابل، مضت عشر دقائق تقريبًا ودخلت عائلة علام حيز رؤيتي، كان والديه فقط من أتيا، وتركا منال وياسر في رعاية السيدة علياء صاحبة العقار، الذي أسكن فيه.

حاولت مواساة والديه، لكن لم أجد شيئًا منطقيًا لأقوله، وكنت وقفت مثل وقفتهما تلك، قبل إحدى عشر عامًا، في ليلة كئيبة ممطرة، وكنا نستعد لرحلة عائلية لأسيوط في نهاية الأسبوع، إذا ما توقف المطر، وصحوت السماء وجفت الأرض، لكن والدي وعمتي وعمي قد لقوا حتفهم واختفت الخطة، وبدلًا من أن نسافر لأسيوط، سافرت العائلة من أسيوط إلينا، وفي تلك الليلة، أيضًا، بدت كل الكلمات غير منطقية لقولها.

وُضع علام في سيارة المستشفى، وركبت مع عائلته في سيارة المديرية نحو سرادق العزاء، حيث سنصلي عليه صلاة الجنازة، ثم ستستقبل العائلة العزاء، على أن يدفن في وقت المغرب في مقابر العائلة في الجيزة.

صليت الجنازة مع الجيران، الذين تجمعوا من كل الشوارع المحيطة؛ لتوديع الروح الجميلة، التي

Visual Watermark

تركت أثرها فينا ورحلت، وبكى الأطفال، الذين جمعتهم صداقة مع علام، ثم أعيد جسده إلى سيارة المستشفى حتى انتهاء السرادق.

انسحبت من وسط المعزين، وانطلقت إلى الشارع الرئيسي، وكنت قد اتخذت قراري، إني بحاجة للمساعدة لأجد من فعل ذلك بعلام، ليست مساعدة نفسية، ليست مساعدة مكتبية، بل مساعدة من شخص يخفي أكثر مما يظهر، كنت بحاجة لأبلة عفت.

اندفعت إلى داخل البوتيك بمجرد أن وصلت إليه، فوجدته فارغًا تمامًا سوى من مدام عفت، التي تجلس بهدوء إلى إحدى الطاولات وتشرب قهوتها، وعندما رأتني لم تندهش، بدت وكأنها تنتظرني، وتعلم أني سآتي.

حدقت في وجهي، وسألت:

-الولد مات؟

-مين قالك؟

ابتسمت، ووضعت كوبها الفارغ أمامها، كما لو كانت تنتظر، كما لو كانت تعرف:

-الظاهر إن عمتك ماتت قبل ما تحكيلك عني، أقعد يا قاسم، أقعد، خلينا نجاوب على أسئلتك.

أشارت إلى الكرسي أمامها، فأغلقت باب البوتيك وسرت نحو الكرسي المقابل لها، مشغول الفكر مدهوشًا.

-إنت كنت عارفة إني هاجي النهاردة؟

هزت رأسها إيجابًا.

-إزاي؟

-بلاش أسئلتك اللي لا بتقدم ولا بتأخر دي، واسأل عن اللي بتدور عليه.

التقطت نفسًا، وازدردت ريقي، هل أنا على وشك التصريح بهلاوسي؟ ماذا لو كانت أسئلة حمقاء فحسب؟ كنت متوترًا، لكني لم أفكر كثيرًا، ما كنت لأرتاح إلا عندما أعلم ما حدث لعلام، إني مدين له بهذه الإجابة.

-اللي حصل لعلام كان متدبر؟

هزت رأسها في صمت، وبدت وكأنها متشوقة ومستمتعة بهذا الحديث، وكأنها تلعب لعبة تفوز فيها.

-ليه عملوا فيه كده؟

-علام كان عسكري في اللعبة، حد لازم يتضحى بيه عشان تفوق وتوصل للحقيقة.

-حقيقة إيه؟ حقيقة إيه اللي تخليهم يموتوا ولد عنده اتناشر سنة.

صمتت لبرهة، قبل أن تتابع:

-إنتَ واثق في اللي حواليك زيادة عن اللزوم.

هتفت بحدة، ما زالت تتحدث بالألغاز وتجعلني واقفًا على أصابع قدميّ:

-لوسمحتي جاوبيني من غير لف ودوران.

-ما أنا بجاوبك، بس إنتَ لسه مش عاوز تفتح عينك وتبص يا قاسم.

-أبص على إيه؟

Visual Watermark

صرخت، فنظرت مدام عفت إلى الشارع من النافذة جوارها، وأغلقت الستائر المخملية.

-تعالى معايا.

-على فين؟

نظرت لي ولم تجب، فزاد شعوري بالضيق والانزعاج، فلم أتوقع أن المساعدة، التي سعيت من أجلها ستكون صامتة للغاية وغير مفيدة، لكني نهضت وتبعتها إلى غرفة خلفية، مخفية خلف باب سري في غرفة المخزن، غرفة فارغة سوى من طاولة حمراء وكرسيين بذات اللون، وجدران مغطاة بورق حائط زيتوني منقوش بزخارف ذهبية.

أشارت مدام عفت لأجلس على الكرسي، وجلست في مقابلتي.

-حضرتك جايباني هنا ليه؟

طالعتها بنفاذ ثبر، وتساءلت إن كانت مجرد امرأة مجنونة.

-عشان أعرفك على حقيقتي وأعرفك على حقيقتك، كل واحد جواه أوضة زي دي، حقيقته مستخبيه فيها، وأنا دوري أساعدك عشان تلاقي أوضتك، وتشوف حقيقتك.. احكيلي عن حلمك يا قاسم.

-أنهي واحد؟

ابتلعت لعابي بقلق من النظرة الغريبة، التي اعتلت وجهها، وشعرت وكأنها ترى أكثر مما أرى، وكأنما تسترق النظر إلى عقلي وروحي.

-عن حلم الحريق، والست اللي بتصرخ، عن داوود اللي مش بيوصل.. وعن الابن اللي اختفى.

-يعني إنت كمان سمعتيها زيي يومها؟

انتابتني دهشة وسعادة أني لست الوحيد، الذي يمر بتلك الهلاوس الشنيعة.

-أنا مبسمعش، أنا بشوف، عمتك كانت بتسمع، أنا كنت عينها وهي كانت وداني، عيلتك كانوا يسمعوا ميشوفوش، ويمشوا من غير عينين، لكنك مش زيهم.

-مش زيهم إزاي؟ أنا.. أنا مش فاهم حاجة.

-رجلك مش بتاخدك غير لزمان، عقلك مش بيوريك غير الضلمة.

-وإيه الجديد يعني؟ ما كلنا عارفين ده، إنت جايباني هنا عشان تقوليلي كده؟

-عايز تشوف حاجة متعرفهاش؟

-يا ريت.

قلت بقلة صبر، فنهضت مدام عفت ودارت في الغرفة، وأغلقت جميع المصابيح الزيتية، التي حافظت على الغرفة مضاءة، بما أنها لا تحوي أية مداخل أخرى للضوء والهواء، وأبقت على مصباح وحيد مضاء، فحملته ووضعته بيننا على الطاولة، فأضاء وجهينا فقط بلون أصفر مشتعل.

-بص على وشي.

قالت وأشارت نحو وجهها، الذي بدأ يدور وكأنه يتحول إلى دوامة، وفجأة اختفت عينيها، وأنفها وفمها، ذابوا جميعًا وتركوا وراءهم حفرة بيضاوية كبيرة، وكأني أنظر إلى هاوية مظلمة، أو ثقب أسود، ثقب أسود يسحرني لأنظر إليه أكثر فأكثر، وأن أشعر بالهدوء والاسترخاء وكأنني نائم.

-المدام بتولد يا باشا.

-بتولد دلوقتي؟ بس ده مش معادها، طب.. بسرعة، بسرعة نادوا الحكيمة.

كان داوود أكثر وضوحًا عما كان في حلمي، ذو هيئة جميلة، وملبس حسن، لكنه لم يكن يراني.

Visual Watermark

-بص يا داوود، ده بيضحك، شبهك أوي.

نظر داوود لزوجته حسناء بحُب وسعادة.

-هنسميه إيه؟

-إنتَ رأيك إيه؟

-علي.. علي داوود عبدالهادي.

قال بفخر، وابتسمت زوجته وهزت رأسها موافقةً، وعادت تنظر إلى طفلها الصغير الهادئ، بينما دخل طفل آخر، قصير، مع وجه ذكي.

-تعالى يا أنس، سلم على أخوك.

قال داوود وأشار لابنه أن يقترب من السرير، حيث يجلس الجميع.

نظر أنس إلى وجه علي الصغير، وحدق فيه لدقيقة صامتًا وترقب والديه ردة فعله، ثم رفع أنس رأسه وقال:

-شكله مش بيعرف يلعب كورة.

ضحك داوود وزوجته، قبل أن يقول:

-بكرة يكبر وتلعبوا سوا.

ثم تغير المشهد، تغيرت الألوان، والمواسم، والمشاعر، ففي المرة التالية، التي رأيت فيها وجه داوود، لم يكن باسمًا مرتاح البال، بل مرتعبًا، ومستعدًا للجلوس على ركبتيه للتوسل، أشبه برجل مكسور، أكثر من الرجل المهيب، الذي رأيته قبلًا، وكان يتوسل إليها، كان يتوسل لمدام عفت؛ لتحمي أطفاله.

مدام عفت هي من سرقت علي يوم الحريق، لا لم تسرقه، لقد أنقذته، أنقذته هو فقط، كانت تستطيع إنقاذهم جميعًا، لكنها لم تفعل، اختارت ألا تفعل، وأنقذت الطفل فقط بمساعدة من خادمة شابة فقيرة، تُهرب لها الرضيع من الباب الخلفي للمنزل، في مقابل أن تساعدها في الزواج من رجل غني، لكن الخطة فشلت عندما رأتهما الزوجة حسناء، ثم اندلع الحريق، وهربت مدام عفت، والخادمة المسكينة بقيت شابة وعزباء للأبد.

ثم الطفل الرضيع وجد عائلةً أخرى، وامتلك اسمًا آخر، بدلًا من علي داوود عبدالهادي، أصبح قاسم يوسف محمود الدالي.

التقطت أنفاسي دفعة واحدة وكأنما كنت اختنق، أختنق بالماضي الأسود، الماضي، الذي يخصني وحدي، أنا هو الطفل المفقود، أنا هو علي داوود عبدالهادي!

ابتعدت عن الطاولة، وسقط الكرسي خلفي أرضًا، وعاد وجه مدام عفت بشريًا، عاد كما كان، مع نظرتها المعهودة الهادئة؛ لأنها تسبقني بخطوة، والكثير من الأسرار.

-إيه.. إيه اللي إنت خلتيني أشوفه ده؟

-حقيقتك، الماضي بتاعك اللي رجلك عمالة تاخدك ليه.

-ده كدب، إنت ست مجنونة ونصابة.

-إنتَ عمرك ما أخدت بالك إنك مش شبههم؟ مش شبههم في أي شيء، في الشكل، في العقل وفي القوة، وتفاصيل تانية كتير.

رغم مشاعري، التي بقيت تفور بداخلي، بقي صوت مدام عفت هادئًا.

-نجوى كان عندها مُشاكل في الخلفة وعلاجها كان هياخد وقت، ويوسف مكانش عاوز يتجوز غيرها، لكنه كان ملزوم يجيب أطفال؛ لأنه كان من العائلات الملزمة بالإنجاب، وهنا كان دوري،

Visual Watermark

ناهد قالتلي إنهم محتاجين طفل، وداوود قالي إنه عايز يحمي ابنه اللي لسه بيرضع من الموت، فعملت الصفقة بين محمود الدالي وداوود عبدالهادي، إني آخد ابنه الصغير علي وأديله هوية جديدة؛ واحميه من النهاية الأليمة لقرار والده الشجاع والنبيل بالانشقاق عن الأبديين.

-إنت.. إنت تعرفيهم؟ تعرفي الأبديين؟

تفاجأتُ وتفاجأت مدام عفت للمرة الأولى، وقالت بإعجاب:

-الظاهر إنك وصلت لمعلومة مفيدة أخيرًا، كويس، مش هضطر أشرحلك كتير عنهم، بس لازم تعرف إن الأبديين شعارهم (من ضحى، ساد أبد الدهر)، المجموعة دي نشأت من خلال التضحية لاستدعاء قوة مظلمة خطيرة؛ للقوة والخلود والثروة، وكان تمنها الوباء اللي انتشر في الورق.

كلما تحدثت مدام عفت، كلما زاد اندهاشي وخوفي، هذه المرأة تعرف أشياء لم تُذكر في الكتب.

-سيدة الأبديين، وإللي كانوا بيسموها بالسيدة الراهبة حشمة الدار، حلمت في يوم إن فيه شخص هيطلع من نسل فرد من الأبديين هيكون سبب في دمارهم وإبطال تضحيتهم، وسموا الشخص ده بالكافر الخائن، وعلى هذا الأساس طلبت السيدة الراهبة من كل الأعضاء إنهم يعملوا عهد بالدم إن اللي هيطلع من نسله الابن الكافر الخائن لازم يقتله، وإللي مش هيعمل كده هيلقى موتة بشعة، وهيُطارد لآخر الأرض.

-أنا مش فاهم حاجة، إيه اللي دخل كل ده في.. في اللي إنت خلتيني أشوفه.

شعرت بأن كل شيء يحدث بلا معنى، مشوشًا وحائرًا تساءلت.

-الحريق اللي كان في قصر الباشا كان غرضه من البداية إنك تموت فيه، إنت الكافر الخائن يا قاسم.

انتابتني رغبة في التقيؤ، رغبة غريبة لم ترحل عني، وخشيت من السر، الذي سُيكشف عن عيني تاليًا، خشيت من الكذبة الأخرى، التي ستسقط من جدار حياتي الزائفة.

ابتلعت لعابي، وأردت ان أسد أذناي، أن أعمي نفسي عن الحقيقة باختياري.

-اقتل فريدة يا قاسم؛ وإلا عمر عقلك ما هيكون في أمان.

فاجأتني هذه الجملة، شعرت أنها كذبة، محض جنون وافتراء.

-إنتِ بتقولي إيه؟ عايزاني أقتل خطيبتي؟ إنت فعلا ست مجنونة، أنا غلطان إني جيتلك.

هزت مدام عفت رأسها وبدت خائبة الأمل، بدت تسخر من سذاجتي.

-اللي كان معاك في قصر الباشا ليلتها مكانش أنطونيو، مكانش فيه حد معاك أصلًا، ده الوهم اللي فريدة خلتك تعيشه.

تحدثت بصوت واثق، وكأنها ربحت بالحركة الأخيرة، وشعرت أن نفسي يضيق، وأن جدران الغرفة تتهاوى فوقي، فتخنق أوداجي أكثر فأكثر.

-اقتل فريدة واهرب من أهلها، اهرب من نسل الأبديين.

جاء صوت مدام عفت كصدى، وكأنها تتحدث تحت الماء، وشعرت بالدوار، فأمسكت بمقبض الباب، وفتحته؛ لأبتعد عن هذا المكان الخانق، صرخت مدام عفت:

-لا.

ثم جاءت النهاية سريعة، فبمجرد أن ركضت خارج الغرفة إلى الجزء الخارجي من البوتيك، أسرعت مدام عفاف خلفي، صارخةً:

-ارجع يا قاسم.

لم ألتفت لها، كنت ما زلت عاجزًا عن التنفس بشكل جيد، فككت مقدمة قميصي فعلي ألتقط

Visual Watermark

انفاسي، فأفكر بشكل جيد، لكن كل ما فكرت فيه هي أنقاض حياتي المهدمة، الأنقاض، التي لم تُبنى أبدًا، خدعني الجميع واعتبرني مغفلًا، وتلك حقيقتي، إني لمغفل وساذج ومجنون، وشخص عاش حياته مَحطًا للسخرية.

صدح فجأة صوت طلقتين ناريتين اخترقتا الزجاج وعبرتا جوار رأسي، وأصبح كل شيء بعدها صامتًا من حولي، كما لو كنت أصمًا، لكن لحسن الحظ، عقلي أصبح واضحًا أيضًا، وبينما سقطت مدام عفت أرضًا كجواد يحتضر، أدركت أني بحاجة للابتعاد عن النوافذ، وأني بحاجة لإنقاذها من الموت، مثلما أنقذتني ذات مرة.

سقطت على ركبتاي وأحنيت رأسي جيدًا، وحثثت عقلي بكل ما لدي من قوة؛ ليعمل ويفكر.

كانت مدام عفت ما زالت تتنفس، فزحفت نحو باب البوتيك، وتأكدت من إغلاقه بالقفل جيدًا، وارتجفت أنفاسي من أن تكون هذه نهاية حياتي، نهاية خائفة ومخزية، ثم عدت مرة أخرى نحو أبلة عفت، وحاولت سحبها نحو الغرفة السرية، ريثما تصل المساعدة، المساعدة؟ أجل، يجب أن أتصل بالمساعدة، لكني لا أعرف بمن أتصل، وإن كانت هناك مساعدة حقيقية أصلًا.

خرج صوت ضعيف من مدام عفت، وانتابني خاطر أنها تريد أن تشارك بكلماتها الأخيرة قبل الوفاة، خاطر حزين، مفزع، لكنني تقبلته بهدوء، فلقد رأيت موتًا كثيرًا هذه الأيام.

-قاسم.

-أنا هنا يا مدام عفت، متقلقيش، إنت هتكوني كويسة.

لهثت مدام عفت، وتمسكت بكمي:

-لا، اسمعني.. مفيش وقت.. لازم.. تعرف.. إن اللي عملناه ده كان.. لأجل الخير.

-أنا فاهم، متتكلميش كتير أرجوك، كده هتتعبي أكتر.

حاولت أبلة عفت أن تتحدث، بدت كما لو كانت تقاتل لتخبرني بشيء هام، بكلماتها الأخيرة، التي تجمعت فوق حلقها وكتمت أنفاسها، فقربت أذني نحو فمها علّي أفهم ما تريد قوله لآخر مرة فتغادر مرتاحة البال، فخرج صوتها خافتًا خائفًا، كما لو أن الآوان قد فات لفعل شيء هام:

-مش هيسبوك.. لازم تدو.. دور عليها، لازم.. تدور عليها.

لهثت كلماتها، لكني كنت ساقطًا في الحيرة.

-أدور على مين؟

اتسعت عيناها، بينما تحاول رفع رأسها، علّها تتمكن من قول أهم أسرارها:

-حشمة.. حشمة الدار.. چان.

ثم هكذا رحلت، سكنت أنفاسها، وغابت عينيها، وغامت نظراتها إلى اللامكان.

رحلت أبلة عفت دون أن توضح تفسيرها الأخير لزبونها الأخير.

Visual Watermark

خاتمة

لم يشعر قاسم من قبل بفرط من الوحدة والتيه مثلما شعر في ذلك المساء، عندما غادر البوتيك مخلفًا وراءه جثة أبلة عفت، وزجاج مهشم ومجد مكسور، آملًا أن يجدها شخص ما، مملوء بالأمنيات، التي لا يستطيع إلا ان يراها شبيهة بأمنيات الأطفال، مليئة بالوهم، ومثيرة للضحك.

متعثرًا في خطواته، يرتجف جسده ويشعر بالبرد، يعبر جوار النيل الأسود الحي، وعينيه مليئة ببقايا الدموع، التي لا يعلم لم ذرفها، والرهبة، ملابسه ملطخة بالدم، يتلفت كل برهة حوله، في الشارع المظلم الساكن، في بلدة الأشباح، يخشى أن يظهر شخص فجأة فيقتله، أو أن يُعتقل مرة أخرى في غرفة التحقيق الكئيبة، وأكثر ما يدركه الآن، أن حياته دومًا ما عانت من الاكتظاظ السكاني، عائلة كبيرة، وجيران كُثر، وحظى، ذات يوم، بصديقين، لكنه الآن لا يمتلك شيئًا سوى الحيرة، ورغبة في الحديث مع أي أحد، لكنه لا يعرف أي أحد في هذه الليلة، ولا حتى نفسه،، والشيء الوحيد، الذي بقي له، هو المكان الوحيد، الذي استمر في الهروب منه، والمكان الوحيد المستعد لقبوله كما هو هذا المساء، قصر والده، قصر الباشا، لكن الليل الكاذب المليء بالضياء، يفقده بصره، ويجعله أصمًا، يلقيه ويحميه، يؤنسه ويجعله وحيدًا، ويتركه يمضي، ثم يكون لائقًا باسمه، الرجل، الذي أكله الليل.

***

``فيه تحت فروة راسي

متاهة...

صندوق الدنيا.. وبحر مالهوش قرار

العقل زينة.. يدلنا نختار

ونحتار ويشت بينا للسما السابعة

في الراس حيطان حراس..

بتمنع الفكرة.. وترسم غيوم

الجمجمة زحمة زيادة عن اللزوم

مليانة أدراج شايلة صور وتراب

أصحاب على أغراب على تفاصيل

أغاني محفوظة من الجامعة

ونزهة جنب النيل

فيه تحت فروة راسي

حمل بكرة مع ونس امبارح

سماوات.. شوارع.. مسارح

تحت فروة راسي جنان

أنا وأنا نايم بافكر

مخي كإنه دفتر

في جمجمة إنسان(18)``

نهاية الجزء الأول

Visual Watermark

التسلسل الزمني للأحداث

- ١٨٦٠ بداية الوباء.
- ١٨٦٣ وفاة الوالي محمد سعيد.
- ١٨٦٥ بداية مجلس العموم.
- ١٨٧٠ اكتشاف أن الورق ينقل العدوى.
- ١٨٧٢ بداية عملية الدرب الأحمر.
- ١٨٧٣ قانون حظر تداول الورق.
- ١٨٧٤ نهاية عملية الدرب الأحمر.
- ١٨٧٨ ولادة عادل الدالي.
- ١٨٧٩ عزل الخديوي إسماعيل.
- ١٨٨٠ ولادة ناهد الدالي.
- ١٨٨٢ أول دواء.
- ١٨٨٤ حظر التجوال.
- ١٨٨٦ ولادة يوسف الدالي.
- ١٨٩٠ تقسيم مجلس العموم إلى المجلس الأعلى والأدنى.
- ١٨٩٨ قانون تجريم تعاطي المخدرات لمفتشي الليل.
- ١٩٠٠ اللقاح الأكثر فعالية للحد من الأثار الجانبية للوباء.
- ١٩٠١ الظهور العلني لأخوية الرجال الأموات.
- ١٩٠٨ الدكتور عادل الدالي يربط بين الليل وسرعة انتشار العدوى.
- ١٩٠٩ إقرار قانون عادل الدالي للكهرباء.
- ١٩١٨ بداية بناء قصر الباشا.
- ١٩٢١ نهاية بناء قصر الباشا.
- ١٩٢٧ فهم محفزات المرض وكيفية انتقاله بشكل كامل على يد عادل الدالي في أطروحته الشهيرة.
- ١٩٣٠ تسجيل ولادة قاسم، وحريق قصر الباشا.
- ١٩٤٠ وفاة الأخوة الثلاثة.
- ١٩٥٤ وقت التكليف بتاع قاسم.
- ١٩٥٥ قضية البنسيون.

...والبقية تأتي...

***

Visual Watermark

صور تفصيلية مصممة بالذكاء الاصطناعي لبعض أقوى الوحوش، التي رصدها الأخوة الثلاثة (عادل، وناهد ويوسف)، ستظهر الوحوش وأنواعها وأسماءها الخاصة شيئًا فشيئًا خلال تطور أحداث الجزء الثاني.

***

رابط بينتريست للغوص في أجواء الرواية، والحصول على تلميحات لأحداث الجزء القادم.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

@RIWAYAT2025

Visual Watermark
Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

شكر خاص جدًا

إيمان عادل، ميس المرامي، إيمان أحمد خلاف، حبيبة سلمان، ريمه عويلي، فتياتي المدهشات، شكرًا للمرور معي في هذه الرحلة، للدعم، والوقت والنصائح، التي قدمتموها لي؛ للنجاة من الورق وبراثن الليل.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
Visual Watermark

للتواصل مع الكاتبة

أُسر دائمًا، باستقبال أراءكم ومراجعاتكم للعمل، بما تحمله في طياتها من مديح أو انتقاد بناء، وبالتأكيد توقعاتكم، التي أتوق لقراءتها، للأحداث القادمة، من خلال:

حساب الإنستجرام: xayaxx_

الفيس بوك: آيه الرجبي

أو من خلال صفحة العمل عبر goodreads

أو من خلال مسح الكود أدناه، للحصول على جميع حساباتي، مع تلميحات للجزء الثاني، واختبارات مرحة حول الرواية وشخصياتها.

روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
Visual Watermark

1 ترجمة ضي رحمي.

2 حملت مطبعة بولاق الأميرية، التي افتتحها محمد علي باشا عام ١٨٢٠م، لوحة تذكارية لتأسيس المطبعة كُتب فيها «إن خديوي مصر الحالي محمد علي، فخر الدين، والدولة وصاحب المنح العظيمة، قد زادت مآثره الجليلة، التي لا تُعد بإنشائها دار الطباعة العامرة وظهرت لتجميع بشكلها البهيج والبديع». مع ذلك صحة حمل محمد علي لقب الخديوي من عدمه هي مسألة جدل تاريخية بين المؤرخين، وأغلب الظن أنه استخدم هذا اللقب كلقب فقط وليس بشكل رسمي، مثلما فعل حفيده الخديوي إسماعيل.

3 فرديناند دو ليسبس: سياسي فرنسي، كان صاحب مقترح إنشاء قناة السويس، وحصل على فرمان إنشاء القناة، وقد احتوى الفرمان على شُروط مجحفة مثل حصول الشركة المسؤولة على حق امتياز القناة لمدة ٩٩ عامًا، ثم بعد ذلك تصبح للحكومة المصرية. رغم أن القناة المائية قد بُنيت على أرض مصرية وبأياد مصرية ونُزف على أرضها دماء ١٢٠ ألف مصري، ماتوا في سبيل إنشائها، وقد أعاد الرئيس المصري جمال عبدالناصر، قناة السويس للمصريين مرة أخرى بقراره بتأميم القناة في يوليو ١٩٥٦م.

4 نيشان إسماعيل: هو أحد الأوسمة، التي كانت تُمنح في مصر في فترة الحقبة الملكية، أنشأه السلطان حسين كامل في ١٤ أبريل ١٩١٥ لمكافأة من يؤدون خدمات استثنائية، وسُمي بهذا الاسم نسبة الى الخديوي إسماعيل، تولى صناعته في البداية بيت لاتس، ثم من بعده بيت توفيق بشاي الكائن بوسط القاهرة، الذي ما زال يتألق في صناعة كل الأوسمة والنياشين المصرية حتى الآن.

5 لقب بيك.

6 مقهى چروبي: مقهى چروبي مقهى عريق وقديم بميدان طلعت حرب بالقاهرة، أسسه جاكومو چروبي، سويسري جاء إلى مصر في ثمانينيات القرن التاسع عشر، أنشأ مع ابنه مطعمًا ومتجرًا لبيع الحلوى يحملان اسمه في وسط القاهرة، أحدهما بميدان طلعت حرب (سليمان باشا سابقا)، والآخر بشارع عدلي، وقد أدخل أنواعًا جديدة من الحلوى، حملت أسماءً مثيرة للاهتمام في عصرها، كالكريم شانتيه، المارون جلاسيه، جيلاتي، ميل فوي، إكلير، بُول دي شوكولا، وغيرها.

7 الشُراعة: هي جزء من الباب، كان معتادًا تركيبه في المنازل سابقًا، ويبدو كنافذة طويلة في منتصف الباب، ولغويًا يعني: مِصراعٌ يعلو الباب أو النّافذة للإضاءة أو التّهْوية.

8 كشك الألماظية: هو وجبة مصرية لذيذة تُصنع من اللبن والمرق والدقيق وتُزين بالبصل المُحمر، وقد يُضاف إليها الدجاج.

9 الاسم القديم لكوبري الجلاء.

10 من رباعيات عمر الخيام.

11 تنطق كولونيا خمس خمسات، وقد كانت كولونيا شهيرة في تلك الفترة.

12 المورستان: لفظ قديم كان يُطلق على مستشفى الأمراض العقلية.

13 الصاغ: عملة اسمية كانت تُطلق على القرش، ولم تعد تُستخدم في مصر منذ القرن الماضي.

14 جزء من قصيدة And still I rise

لمايا أنجلو، ترجمة الشاعر الفلسطيني: يوسف حنا.

15 المنيل: يعد أحد أرقى أحياء القاهرة، يقع في الجزء الشمالي من جزيرة الروضة على النيل ويعرف أيضاً باسم منيل الروضة ومن معالمه قصر الأمير محمد علي وقصر سعيد باشا ذو الفقار (كبير أمناء القصر الملكي) وقصر العيني ومسجد السلطان قايتباي ويتصل المنيل بالجيزة عبر ثلاثة كباري هي سيالة المنيل والقصر العيني والمريديان.

16 البريزة: هي ١٠ قروش.

17 رمضان سنة ١٩٥٥ كان يوم ٢٩ أبريل.

18 قصيدة لأحمد حداد، بتصرف.

Visual Watermark